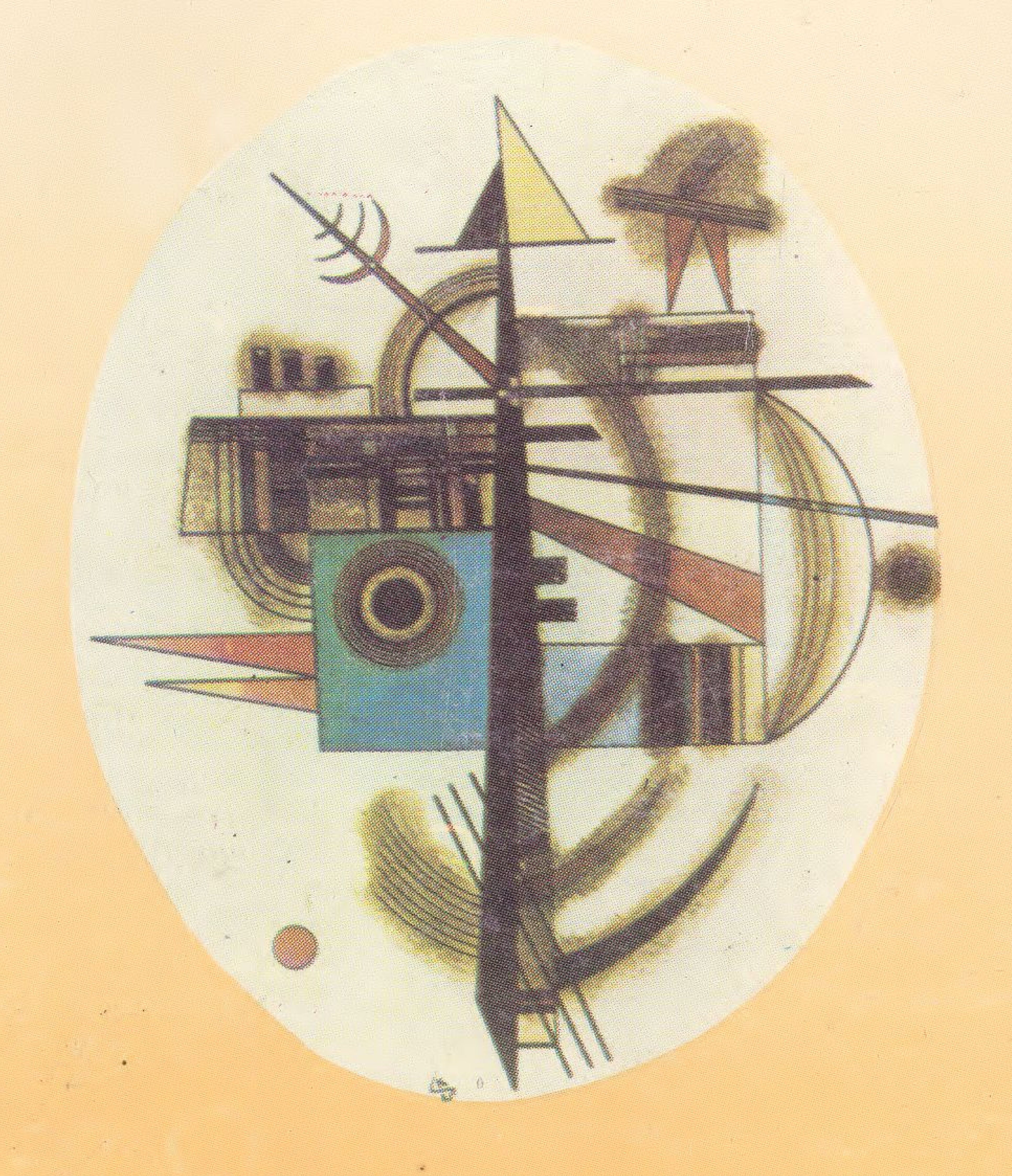
فِيلهيلمُ غَاوفُ



شيخ الإسكندرية وعبيده

قصص

ترجمة

عياد عِيد

شراف الفني : زهير الحمو

فيلهيلم غاوف

شيخ الإسكندرية وعبيده

قصص

ترجمة

عيّاد عيد

منشورات وزارة الثقافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق ١٩٩٧

العنوان الأصلي للكتاب:

В Гауф

КАРАВАН

Москва

" Художественная литература"

1988

شيخ الاسكندرية وعبيده / فيلهيلم ھاوف ؛ ترجمة عياد عيد . —
دمشق : وزارة الثقافة ، ١٩٩٧ . — ١٥٢ ص ؛ ٢٠ سم .

١ — ٨٩١٫٧٣ ر   غ ا و   ش   ٢ — العنوان
٣ — ھاوف   ٤ — عيـــد

مكتبـــة الأســـد

الايداع القانوني : ع — ٢٠٨٨ / ١٢/ ١٩٩٧

الحكايــة في زي المنــاخ(١)

في بلاد جميلة بعيدة ، قيــل في الاسطورة أن الشمس لا تطل على بساتينها دائمة الخضرة أبدا ، حكمت الملكة خيال منذ قديم الأزل وحتى أيامنا هذه ، وكانت سخية جـدا فغمرت أتباعها بالخيرات المختلفة منذ زمن بعيد ، وأحبها وأجلها كل من عرفها . غير أن قلب هذه الملكة وافر الحب أبى عليها أن تسعد بفعل الخير في بلدها ، فطارت بجمالهـا

(١) المناخ هو حـال المكان من حيث اعتدال هوائه وعدمـه ، وموافقتـه للصحة وعدمها ، وهو أيضا اللائحة أو الكراسة التي تحتوي على جداول الأيام والأشهر مع بيان زمان طلوع الشمس والقمر وغروبها وأوقات الأعياد . يستعاض عن المعنى الثاني بكلمة التقويم . أخذت هذه الكلمة عن العربية ، عبر اسبانيا على الأغلب ، فهي تستخدم في اللغة الاسبانية والفرنسية والألمانية والروسية ، ولها معنيان :
١ ـ مختارات نتاجات حديثة في الادب لمؤلفين مختلفين ، ينتمون احيانا الى تيـار واحد .
٢ ـ تقويم يضم معلومات مختلفة الانواع وتنبؤات فلكية ، وهـذا المعنى استخدم كثيرا في القرون الوسطى في أوروبا . (المعرب) .

الملكي كله وشبابها ونضرتها الدائمين الى الأرض ، لأنهـا سمعت انهـا مقطونة بأناس يعيشون في الأحزان القاسـية وسط الهموم والأعمـال ، وحملت لهم اجمل الهـدايا من مملكتها . صار الناس ، منذ انشغلت هذه الملكة الحسناء بهم ، يعملون بسعادة أكبر ، وخلت نفوسهم من الهموم .

أرسلت الملكة الى الأرض أيضا أولادها ، الذين لم يقلوا روعة وبشاشة عن أمهم ، ليهدوا الناس السعادة . ومرة عادت الحكاية ، وهي أكبر بنات الملكة سنا ، من الأرض . لحظت الأم أن الحكاية حزينة ؛ لا بل بدا لهـا أن عينيها قد بكتا ، فقالت لها :

« ــ ما بك أيتهـا الحكاية الغاليـة ؟ لم أنت حزينـة وساهمـة منذ عـدت من الأرض ؟ ثقي بوالدتك وقـولي ما بك » .

ردت الحكاية : « ــ آه يا أمي العزيزة . لم أكن لأصمت طويلا هكذا لو لم أعلم أن حزني هو حزنك أيضا » .

قالت الملكة الرائعة : « ــ لا حاجـة الى ذلك . قولي يا ابنتي ، فالمصيبة حمل لا طاقة لفرد واحد عليه ، ويسهل على اثنين معا حمله » .

ردت الحكايـة : « ــ اذن فاسمعي . أنت تعلمين كم أستمتع حين أقضي الوقت مـع الناس ، وكم أسعد حين

أجلس في أكواخ الفقراء كي أترنر معهم ساعة بعد انتهائهم من العمل . كان الناس يرحبون بي بفرح حين آتيهم ويبتسمون مرحين ، وينظرون في أثري حين كنت أبتعد عنهم . لكن كل شيء كان مختلفاً آخر مرة » .

قالت الملكة وهي تربت على خدها المبلل بالدموع :
« ــ مسكينة أيتها الحكاية . لكن ألست واهمة في ذلك ؟ »

قاطعتها الحكاية قائلة : « ــ صدقيني ، فأنا لم أخطىء. انهم ما عادوا يحبونني ، وأينما حللت كانت النظرات الباردة تستقبلني ، ولا أحد يفرح بي ، حتى الأطفال الذين أحبوني دائماً يهزأون بي ويعرضون عني بجدية أكبر من سنهم » .

أسندت الملكة رأسها على يدها ، وصمتت مفكرة . ثم سألت ابنتها :

ــ « لكن بم تفسرين أيتها الحكاية تبدل الناس هناك على الأرض ؟ » .

ــ « لقد وزعوا أيتها الملكة خيال حراساً حكماء في كل مكان ، يرقبون بانتباه كل قادم من مملكتك . فاذا لم يعجبهم أحدهم فانهم يرفعون عقيرتهم بالصراخ ، ويقتلونه أو يشهرون به بين الناس ، الذين يصدقون كل كلمة يقولونها ، فلا يبقى

لديهم أي حب أو ذرة من ثقة . آه ، كم الأمر سهل على اخوتي الأحلام ، فهم يطيرون الى الأرض بخفة ومرح ، الى الناس النائمين فيفرغون فيهم كل مايفرح القلب ويمتع النظر دون أن يعيروا أي انتباه الى أولئك الحكماء » .

قالت الملكة : « ــ ان اخوتك طائشون ، وليس فيهم مايجب أن يثير حسدك أيتها المحبوبة . أما أولئك الحراس فأنا أعرفهم جيدا : ان الناس لم يخطئوا كثيراً حين وضعوهم، فأكثر من عابر سبيل جرىء تظاهر بأنه قادم من مملكتي مباشرة في الوقت الذي لم يفعل فيه شيئاً سوى أنه أطل علينا بنظره من جبل ما » .

بكت الحكاية : « ــ لكن لم يعاقبونني أنا على هذا وهم يعلمون أنني ابنتك الحقيقية ؟ آه ، لو تعلمين كم سخروا مني . لقد نعتوني بالعانس ، وهددوني بأن لا يسمحوا لي بالدخول في المرة القادمة » .

هتفت الملكة ، وقد صبغ الغضب خديها باللون الأحمر : « ــ كيف ؟ لايسمحون لابنتي بالدخول ؟ لكنني أعرف من أين أتى كل ذلك . ان عمتك الشريرة تنم علينا » .

دهشت الحكاية : « المودة ؟ أيعقل هذا ؟ إنها تبدو لطيفة دائماً » .

أجابت الملكة : « ـ أنا أعرف هذه المخادعة جيداً . لكن حاولي مرة أخرى يابنتي نكاية بها ، وفاعل الخير لايجب أن يكل » .

« ـ آه يا اماه . لكن ماذا لو طردوني أو شهروا بي ، فلا ينظر الي الناس بعد ذلـك ويحتقروني ويرمونني في الركن وينسونني ؟ » .

« ـ اذا أهملك المغترون بالمودة فاذهبي الى الأطفال . انهم حقاً أحبائي ، واخوتك الأحلام ينقلون اليهم مني أجمل الرؤى وأحلاها ، لا بل انني غالباً ما أطير اليهم بنفسي فألاطفهم وأقبلهم وألعب معهم الألعاب المرحة. إنهم يعرفونني جيداً علـى الرغم من أنهم لا يعلمون ما اسمي ، وغالبـاً مالحظت كيف يبتسمون لنجومي ليلا ، ويصفقون بأكفهـم سعادة حين يرون الخراف البراقة تزحف في السماء صباحا. وحين يكبرون يظلون على حبهم لي ، فأنا أساعد الفتيات العزيزات في ضفر الأكاليل المبرقشة ، ويفكر الشبان المليئون حيوية ساهمين ومنتظرين حين أحط قربهم على ذروة صخرة عالية ، وأبني لهم من عالم الجبال الضبابية الزرقاء العالية والبعيدة قلاعاً وقصوراً براقة وأشكل من غيـوم المسـاء الأرجوانيـة فرق الفرسـان الشجعان ومواكب الحجـاج العجيبـة » .

هتفت الحكاية متأثرة : ـ « يا للأطفال الأعزاء . ليكن ما تريدين ، وسأحاول الذهاب اليهم » .

قالت الملكة : ـ « نعم يا ابنتي العزيزة ، اذهبي اليهم، لكنني سأساعدك على التنكر كي تعجبي الصغار ولا يطردك الكبار . أتعلمين ، سألبسك ثياب المناخ » .

« ـ المناخ يا أماه ؟ آه ، سأخجل كثيراً من السير أمام الناس في مثل هذه الثياب » .

أشارت الملكة برأسها ، فأتت الخادمات بزي المناخ البراق والفاخر ، والموشى بالرسوم الرائعة . ثم رحن يضفرن شعر الحكاية الرائع في ضفائر ، ووضعن قدميها في خفين ذهبيين ، ورمين الثوب الجميل عليها . لم تستطع الحكاية المتواضعة رفع عينيها ، لكن أمها نظرت اليها والسرور يغمرها ، ثم ضمتها وقالت :

« ـ اذهبي ، فأنا اباركك . واذا راحوا يهزأون منك فعودي الي . ربما ستكون الأجيال اللاحقة أقرب الى الطبيعة ، وستوجه قلوبها نحوك من جديد » .

هذا ما قالته الملكة خيال .

هبطت الحكاية على الأرض ، وراح قلبها يخفق بشدة حين اقتربت من مقر الحراس الحكماء . أحنت راسها ،

ولفت نفسها أكثر بزيها الرائع ، واقتربت من البوابة بخطا واهنــة .

صرخ صوت فظ وأجش : « ــ قف . الى هنا أيهـا الحراس . لقد ظهر مناخ آخر » .

ارتعدت فرائص الحكايــة حين سمعت ذلك ، وهرع نحوها حشد من رجال مسنين متجهمين ، يحملون ريشـات حادة . اقترب منها أحدهم وأمسكها من ذقنها وصرخ :

« ــ راسك الى الأعلى أيها السيد المناخ . سنعرف ثمنك من عينيك » .

احمرت الحكاية ورفعت راسها عالياً ، وفتحت عينيها الغامقتين .

صرخ الحراس وهم يقهقهون بصوت عال : « ــ الحكاية . كنا نقول ما هذه الأعجوبة التي ظهرت . من أين لك هذه البــزة ؟ » .

أجابت الحكاية : « ألبستني اياها أمي » .

صرخ الحراس رافعين ريشاتهم الحادة : « ــ هكـذا اذن ؟ هل دفعتك الينا لتقومي بالعصيان ؟ لا ، هذا عبث . اغربي من هنا » .

رجتهم الحكاية قائلة : « ــ أريد الذهاب الى الأطفال فقط . في مقدوركم أن تتركوني أذهب اليهم . أليس كذلك ؟ » .

هتف أحد الحراس : « ــ يكفينا ما يتسكع على الأرض من أوباش يحشون رؤوس أولادنا بالهراء » .

قال حارس آخر : « لنرَ ماذا تعرف هذه المرة » .

هتف الجميع : « ــ حقاً ، حدثينا بما تعرفين . لكن أسرعي لأننا لن نضيع وقتاً طويلاً معك » .

مدت الحكاية يدها وراحت ترسم بسبابتها في الهواء إشارات ما ، فومضت أمام أعين النظارة لوحات مبرقشة ، ورأوا القوافل والجياد الرائعة ، وفرسانا مدججين وأعداداً لا تحصى من الخيام في رمال الصحراء ، وطيوراً وأسماكاً في البحار الهائجة ، وغابات هادئة ، وساحات وطرقات غاصة بالناس ، ومعارك ، ومخيمات الرحالين المسالمين . مر كل ذلك أمامهم في أرتال مختلطة وبأشكال حية . ونفخت الحكاية في هذه الرؤى الحياة باخلاص جعلها لا تلحظ كيف غفا حراس البوابة الواحد تلو الآخر . لكن حين همت برسم اشارات أخرى اقترب منها رجل لطيف وأمسك يدها .

قال لها ، وهو يشير الى الحراس النائمين : « ــ انظري أيتها الحكاية العزيزة . انهم لا يحتاجون الى لوحاتك الملونة . لتتسلل سريعا من البوابة ، ولن يعرفوا أنك على الأرض ، وسيكون فيمقدورك أن تذهبي بسلام ، من غير أن يلحظك أحد ، الى حيث تشائين . واذا رغبت فانني سآخذك الى أطفــالي ، وسأخصص لك في منزلي مكانا دافئــاً وهــادئاً لتسكنيــه وتعيشي فيه في ســلام ، واذا ثابر أولادي على دروسهم فانهم سيأتون ليسمعوك مع زملائهم بعد الانتهاء منها . أتريدين ذلك ؟ » .

« ــ آه ، كم أرغب في الذهاب معك الى أولادك ، وكم أرغب في أن أمنحهم مــن وقت الى آخر ســاعة من المــرح والسعادة » .

أشار لها الرجل الطيب بلطف، وساعدها على السير من فوق أرجل الحراس النائمين . التفتت الحكاية مبتسمة الى الوراء ، وانزلقت سريعا عابرة البوابة .

* * *

شيخ الاسكندرية وعبيده

كان علي بانو شيخ الاسكندرية غريب الأطوار . حين سار صباحاً في طرقات الاسكندرية مرتدياً عمامة كشميرية فخمة وزياً احتفالياً وحزاماً غالياً ، يعادل ثمنه ثمن خمسين جملاً ، كان يمشي بطيئاً ومهيباً ، مقطباً جبينه ومتجهماً ، مطرقاً بنظره ويمسد ساهماً لحيته السوداء الطويلة كل خمس خطوات يخطوها في موكبه المتجه الى المسجد ليشرح القرآن الكريم ، أداءاً للفرض الذي يمليه عليه مقامه الرفيع. وقف الناس الذين صادفوه، وراحوا ينظرون في اثره ويحدث بعضهم بعضاً . قال أحدهم : ـ « كم هو وسيم ومهيب هذا الرجل » . وأردف آخر : ـ « وغني . غني ومشهور . انه غني جداً ويملك قلعة قرب ميناء اسطنبول وضياعاً وأراضي، والكثير من القطعان والعبيد » . أشار رجل ثالث : ـ « نعم، وقد قال ذلك التتري الذي أرسله إليه أمير المؤمنين نفسه ، باركه النبي ، إن شيخنا يحظى باحترام عظيم من قبل الريس أفندي وقابودان باشا ، وحتى من السلطان نفسه » . هتف شخص رابع قائلاً :ـ « نعم ، إن كل خطوة يخطوها مباركة

من السماء ، فهو غني ومشهور . لكنه ... أنتم تعرفون ما أعني » . همس أحدهم : ـ « نعم ، نعم . فالحقيقة هي الحقيقة ، ولكل امرء مصابه ، وأنا لا أرجو مشاركته المصير . إنه غني ومشهور ، لكن ... » .

كان لعلي بانو منزل رائع في أجمل ساحات الاسكندرية ، وقد ترامت أمامه شرفة واسعة مكسوة بالمرمر ، تظللها أشجار النخيل . فكان يجلس عليها أغلب الأحيان مساء ويدخن النرجيلة . وكان اثنا عشر عبداً في ملابس ثمينة يقفون على بعد كاف احتراماً له ليتلقفوا نظرته . كان أحدهم يمسك سواكاً ، والآخر مظلة ، والثالث وعاء ذهبياً مملوءاً بشراب النبيذ ، والرابع مهواة كبيرة من ريش الطاووس ليطرد الذباب عن سيده ، في حين راح المغنون ينتظرون بدفوفهم ومزاميرهم اللحظة التي يشاء فيها أن يطرب أسماعه . أما أكثر العبيد علماً فقد جهز اللفافات كي يسليه بقراءتها .

لكنهم كانوا ينتظرون اشارته بغير جدوى ، لأنه كان غير راغب في سماع الموسيقى والغناء ، ولم يشأ الاصغاء إلى أقوال شعراء الزمن الغابر الحكماء وقصائدهم ، ولم يُرد تذوق الشراب أو مضغ السواك ، حتى أن جهود العبد الممسك بالمهواة لم تفد شيئاً لأن السيد لم يلحظ كيف راحت ذبابة تطن حوله .

كثيراً ما كان المارة يقفون ويعجبون لروعة المنزل والعبيد في الثياب الفاخرة ، ولجميع الأشياء المريحة المحيطة بالمكان، لكنهم كانوا يهزون رؤوسهم ، بعد أن ينقلوا أنظارهم الى الشيخ الجاد العابس ، الجالس تحت أشجار النخيل لا يزيح نظره عن دخان النرجيلة ذي اللون الضارب الى الأزرق ، ويقولون : ـ « حقاً إن هذا الغني فقير . إنه ، وهو الملاك ، أفقر من ذاك الذي لا يملك شيئاً . لم يهبه الله سداد الرأي كي يتمتع بثروته» . هذا ما كان المارة يقولونه، ثم يضحكون ويتابعون سيرهم .

مرة ، وقد جلس الشيخ مساءً على عتبة منزله تحت ظلال النخيل ، تحيط به مظاهر البذخ الدنيوي كلها ، وشرع يدخن النرجيلة وحيداً وحزيناً ، احتشد في مكان غير بعيد عنه جمع من الشبان ، راحوا ينظرون إليه ويضحكون .

قال احدهم : ـ « حقاً إن الشيخ علي بانو غبي . فلو كانت لي ثروته لتصرفت بها على نحو مغاير ، ولما تركت يوماً يمضي بغير مرح وترف ، ولجعلت الأصدقاء يحتفلون في القصور الواسعة ، والسعادة والضحك يملأن القباب الكئيبة بالدوي » .

عارضه الثاني : ـ « نعم ، هذا ليس سيئاً . لكنك بذلك قد تنفق الممتلكات كلها على الأصدقاء الكثر، على الرغم

من أنها لا تحصى كممتلكات السلطان ، باركه النبي . لو قدر لي أن أجلس مساء على هذه الشرفة الجميلة تحت أشجار النخيل لأمرت العبيد بالغناء والعزف ، ولدعوت الراقصين ليرقصوا ويقفزوا ويلعبوا الألعاب المختلفة . أما أنا فكنت سأدخن النرجيلة على نحو مهيب وأتناول الشراب اللذيذ واستمتع بكل شيء كملك بغداد » .

هتف الشاب الثالث ، الذي كان ناسخاً : ـ « إن الشيخ ، كما يقولون ، رجل حكيم وعالم ، وهذا صحيح ، فشرحه للقرآن يدل على سعة اطلاعه ومعرفته العميقة بالشعراء جميعهم ، وبالمؤلفات الحكيمة . لكن هل تليق هذه الحياة التي يحياها برجل عاقل ؟ ها هو العبد يقف ممسكاً بحمل كامل من اللفافات ، وأنا مستعد لأن أهب ثيابي الجديدة مقابل قراءة ملف واحد منها ، لأنها نادرة جداً . أما هو فيجلس ويدخن ، ولا يهتم بالكتب إطلاقاً . لو كنت الشيخ علي بانو لقرأ العبد لي حتى يبح صوته أو يحل الليل . لكنه كان سيقرأ لي حينئذ حتى أغفو » .

ضحك الرابع : ـ « اللـه ، لا شيء يقال . فأنتم تحسنون ترتيب حياتكم على نحو مريح : تأكلون وتشربون ، وتغنون وترقصون ، وتقرأون المؤلفات وتسمعون أشعار الشعراء الوضيعين . أما أنا فكنت سأبني حياتي على نحو

مغاير . ان لديه جياداً وجمالاً رائعة ، ويملك أكواماً مــن المال ، ولو كنت مكانه لانطلقت في السفر ، ولسرت الى نهاية الدنيا ، حتى موسكوبيا وأراضي الفرنجة ، ولن ترهبني أبعد الأماكن عن رؤية عجائب الدنيـــا . هذا ما كنت سأفعلــه لو كنت مكانه » .

تمتم رجل مسن سيىء المظهر ، كان واقفاً غير بعيد عنهم وسمع أحاديثهم : ــ « الشباب فترة رائعة . كل شيء يُفرح القلب في هذا العمر ، لكن اسمحوا لي أن أقول إن الشباب غير متعقل ويثرثر هذراً من غير ان يعي ذلك » .

سأله الشبان مستغربين : ــ « ماذا تريد أن تقول أيها المسن ؟ ألا تعتينا بكلامك هذا ؟ ما شأنك إن كنا نذم نمــط حياة الشيخ أم لا ؟ » .

عارضهم المســـن قائلاً : ــ « إذا كـــان أحدكم يعلــم ما لا يعلمه الآخر فليصحح له . أليس هذا ما أمرنا النبي به؟ صحيح أن السماء قد منت على الشيخ بالغنى ، وهو يملك كل ما تتمناه النفس ، لكنه كئيب وحزين ، وهذا ليس بغير سبب . هل تظنون أنه كان على هذه الحال دائماً ؟ لا ، لقد رأيته منذ خمسة عشر عاماً ، وكان آنئـــذ مرحاً ومليئـــاً بالحيوية مثل الغزال ، وعاش سعيداً وتمتع بحياته . كان له حينئذ إبن وسيم ومتعلم . وكان قرة عينه ، وكل من رآه

وسمعه حسد الشيخ على كنزه الثمين هذا . كان لابنه عشرة أعوام ، وكان عالماً بما لا يعلمه ذو الثمانية عشر ربيعاً » .

هتف الناسخ الشاب : ـ « هل مات ؟ يا للشيخ المسكين » .

ـ « كانت نار الشيخ ستهدأ لو علم أن ابنه الآن راقد في جوار النبي ، حيث آل الآباء والأجداد ، وحيث يحيا أفضل من حياته هنا في الاسكندرية . لكن ما عاناه كان أسوأ كثيراً . ففي تلك الأيام هجم الفرنجة على بلادنا مثل الذئاب الجائعة ، وبدأوا يحاربوننا . ثم احتلوا الاسكندرية وراحوا ينطلقون منها في غاراتهم على المماليك داخل البلاد . كان الشيخ رجلاً ذكياً وأحسن التصرف معهم . لكنهم إما طمعوا في ثروته ، أو أنه ساعد أبناء دينه . ليس في مقدوري أن أجزم في هذا الأمر ، فجاؤوا إليه مرة ، واتهموه بأنه يزود المماليك بالسلاح والخيول والمؤونة سراً . لم تجده البراهين التي ساقها لاثبات براءته شيئاً . إذ كان الفرنجة شعباً فظاً وقاسي القلب ، وكانوا يقدمون على فعل أي شيء حين يتعلق الأمر بالمال ، فأخذوا ابنه حيرام رهينة .

عرض الشيخ مالاً كثيراً افتداءاً له ، لكن الفرنجة أرادوا إجباره على زيادة قيمة الفدية ، ولم يطلقوا سراح ابنه . وهنا أصدر باشاهم ، أو كيف كانوا يسمونه ؟ أمراً بالاستعداد

للابحار فجاءة . لم يعلم أحد في الاسكندرية بهذا الأمر ، وأبحروا في عرض اليم . أما حيرام الصغير ، ابن علي بانو ، فقد حملوه معهم على الأرجح لأن أحداً لم يسمع عنه شيئاً منذ ذلك الوقت » .

هتف الشبان بصوت واحد : « ـ آه ، يا للأب التعس. اي عقاب أنزله الله به » .

ثم نظروا مشفقين الى الشيخ ، الذي جلس حزيناً وحيداً تحت أشجار النخيل على الرغم من الجمال المحيط به.

ـ « لم تحتمل زوجه ، التي أحبها حباً جماً ، هـذا المصاب وماتت . أما هو فاشترى سفينة وجهزها ، وأقنع الطبيب الإفرنجي ، الذي يعيش هناك في الأسفل عند البئر ، بأن يرحلا معاً الى بلاد الفرنجة بحثاً عن الإبن الضائع . وركبا السفينة وأبحرا طويلاً الى أن وصلا اخيراً إلى أرض اولئك الكفرة الضالين الذين كانوا في الاسكندرية. لكن حدث هناك، كما يقوالون ، شيء ما غير عادي ، فخلع الفرنجة سلطانهم وباشاواتهم ، وأخذ الأغنياء والفقراء يقطع بعضهم رؤوس بعض وعمت البلاد الفوضى . بحثا في المدن كلها عن حيرام الصغير ، لكن أحداً لم يسمع عنه شيئاً ، فنصح الطبيب الإفرنجي الشيخ في نهاية الأمر بالعودة ، وهي أفضل من أن يقطعوا رأسه .

وهكذا عاد الى الوطن ، وعاش الشيخ منذ ذلك الوقت الى الآن على هذه الحال مفجوعاً بابنه ، وهو محق : فحين يأكل أو يشرب الا يفكر قائلا : « وماذا يفعل ولدي ؟ الا ينهكه الجوع والعطش ؟ » وحين يرتدي الشالات الثمينة والثياب الجديدة كما يفرض عليه مقامه وهيبته الا يفكر قائلا : « هل يملك حيرام ما يغطي به عريه ؟ » وحين يحيط المغنون والراقصون والقارئون من عبيده به ألا يفكر قائلا : « ألا يرقص الآن ابني المسكين أو يلعب ارضاءاً لسيده الإفرنجي ؟» لكن أكثر ما يحزنه هو أن ولده العزيز حيرام قد ينسى وسط الكفرة ، بعيداً عن عينيه ، دين آبائه فلا يعانق أحدهما الآخر في بساتين الجنة . لهذا السبب ترونه رحيماً بعبيده ، كريماً مع الفقراء ، ظناً منه أن الله سيكافئه على صنيعه هذا ، وسيحنن قلوب الفرنجة ، أسياد ابنه ، فيعاملونه معاملة لطيفة ، ويعتق مع مرور كل عام اثني عشر عبداً في مثل اليوم الذي اختطف فيه ابنه » .

رد الناسخ قائلا : « لقد سمعت بهذا أيضاً . لكن أي أعاجيب لا يضيفها الناس على هذه القصة ، ومن غير أن يذكروا ابنه ؟ انهم يقولون إن الشيخ إنسان غريب ، وهو مغرم بالحكايات ،إنه يقيم كل عام مباراة بين عبيده ويعتق من يروي أفضل حكاية » .

قال المسن : ـ « لا تصدقوا شائعات الناس ، فالحقيقة هي ما أقوله لكم . أنا أعرف ما حدث جيداً . قد يرغب في هذا اليوم الحزين في أن يروح عن نفسه ، فيأمر بأن يقصوا عليه الحكايات ، أما إعتاق العبيد فهو لتخليد ذكرى ابنه . اسمحوا لي الآن أن أذهب . السلام عليكم أيها الشبان ولتحكموا على شيخنا الطيب على نحو أفضل بعد الآن » .

شكر الشبان الرجل المسن على المعلومات التي قدمها لهم ، ونظروا مرة أخرى الى الأب المفجوع وساروا في طريقهم وكل منهم يقول : « نعم ، لا أريد أن أكون مكان علي بانو » .

بعد زمن قصير من كلام الشبان مع المسن على الشيخ علي بانو ، قدر لهم أن يمروا في تلك الطريق نفسها ساعة صلاة الصباح ، فتذكروا المسن وحديثه ، وأشفقوا على الشيخ ونظروا الى منزله . لكن كم كانت دهشتهم عارمة حين رأوا القصر مرتباً ومزيناً على نحو يصعب وصفه ، فرفعت الأعلام والرايات على السطح ، الذي كانت تتنزه الجاريات الحسان عليه ، وأغرقت المداخل بالسجاد الثمين ، وغطيت السلالم العريضة بالأقمشة الحريرية ، حتى الطريق فرش بالجوخ الرفيق الرائع ، الذي يشتهيه الكثيرون كي يصنعوا منه لباساً أو دثاراً لهم .

قال الناسخ الشاب : ـ « كم تغير الشيخ في بضعة أيام . الا يرغب في اقامة حفل ؟ الا يرغب في أن يجهد المفنون والراقصون أنفسهم من أجله ؟ انظروا الى السجاد . لا أظن احداً يملك مثيلاً له في الاسكندرية كلها . هل ترون الجوخ الملقى على الأرض العارية ؟ يا للإسراف » .

تمتم شاب آخر : ـ « أتدري بما أفكر ؟ انه ينتظر ضيفاً مرموقاً على الأرجح ، فمثل هذه الاستعدادات لا تقام إلا عند استقبال حاكم البلاد العظيمة أو السلطان أفندي ، حين يشرفان المنزل بحضورهما . لكن من ينتظر اليوم ؟ » .

« ـ انظر من يسير هناك . اليس هو ذلك المسن ؟ انه يعرف كل شيء وسيشرح لنا الأمر على الأغلب . هي ، أيها الرجل المسن . هلا اتيت الينا ولو لحظة ؟ » .

لحظ الرجل المسن إشاراتهم واقترب بعد أن عرف فيهم أولئك الشبان الذين تحدث اليهم قبل بضعة أيام ، فلفتوا انتباهه الى التحضيرات المقامة في منزل الشيخ ، وسألوه إن كان يعلم شيئاً عن الضيف المرموق المنتظر .

قال المسن : « ـ أنتم تظنون أن علي بانو يقيم احتفالا صاخباً ، او أن ضيفاً مرموقاً سيشرفه بزيارة منزله ؟ لا ، فاليوم كما تعلمون هو الثاني عشر من شهر رمضان ، وفي مثل هذا اليوم سيق ابنه الى الأسر » .

هتف واحد من الشبان : « ـ لكنني أقسم بالنبي أن كل شيء مرتب كما لو أن عرساً او مأدبة سيقامان هنا ، مع أن ذكرى هذا اليوم مفجعة للشيخ . كيف تفسرون ذلك ؟ وافقوني على أن الشيخ فاقد الرشد قليلاً » .

ابتسم الرجل المسن وسأله : « ـ الا تحكم على الشيخ متسرعاً كالسابق يا صديقي الشاب؟ ان سهمك حاد ومسنون جيدا ومشدود على وتر القوس على نحو متين . لكنك لا زلت ترمي بعيداً عن الهدف ، ولتعلم أن الشيخ ينتظر ابنه اليوم »

هتف الشبان فرحاً : « ـ هل وجدوه ؟ » .

« ـ لا ، والأصح أنهم لن يجدوه قريباً . لكن حين كان الشيخ يحتفل في مثل هذا اليوم قبل ثماني أو عشر سنوات ، فيعتق العبيد كعادته ويطعم الفقراء ويسقيهم ، حدث أن ارسل طعاما وشرابا لدرويش كان مستلقياً خائر القوى في ظل منزله . كان هذا الدرويش قديساً ومتنبئاً ومنجماً ، وبعد أن تقوى بخيرات الشيخ الرحيم إقترب منه وقال : « ـ أنا أعلم سبب مصابك ، فهذا اليوم هو الثاني عشر من رمضان ، وفي مثل هـذا اليوم فقدت ابنك .. لكن لتهـدأ سريرتك ، فيوم الفجيعة سيتحول الى يوم فرح لك ، واعلم أن ابنك سيعود اليك في مثل هذا اليوم » . هذا ما قاله الدرويش ، والمسلم الذي يشك بكلام مثل هذا الانسان

خاطىء . صحيح أن حزن علي لم يخف ، لكنه صار ينتظر كل مرة في مثل هذا اليوم عودة ابنه ، فيزين المنزل والمداخل والسلالم حتى يصبح في مقدور حيرام العودة في أية لحظة » .

هتف الشاب الناسخ : ـ « يا للعجب . لكنني أرغب ، على الرغم من كل شيء ، في أن أنظر الى الزينة الرائعة ، والى الشيخ وهو حزين وسط هذا الجمال كله ، والأهم من ذلك انني أريد سماع حكايات عبيده » .

اجاب المسن : ـ « وما أسهل ذلك ، فملاحظ عبيد الشيخ صديق قديم لي ، وهو يجهز لي دائما مكانا في القاعة في مثل هذا اليوم ، ففي مقدور شخص واحد أن يمر من غير أن يلحظه أحد وسط حشد عبيد الشيخ واصدقائه . ان عددكم أربعة ، واظن اننا قد نرتب الأمر بوسيلة ما . تعالوا الى هذه الساحة في التاسعة ، وسأنقل لكم جوابه » .

هذا ما قاله الرجل المسن ، فشكره الشبان وابتعدوا يملؤهم شوق عظيم الى مشاهدة الشيخ وهو يحتفل بهذه المناسـبة .

وصل الشبان الى الساحة الممتدة أمام منزل الشيخ في الموعد المحدد ، والتقوا بالمسن ، فقال لهم إن ملاحظ الرقيق سمح له باصطحابهم ، وسار أمامهم ، لكن ليس

على السلم المفروش بالسجاد ولا من خلال البوابةالرئيسية، بل عبر باب جانبي صغير ، اغلقه خلفهم على نحو محكم ، وقادهم بعد ذلك عبر دهاليز مختلفة الى أن وجدوا أنفسهم في نهاية المطاف في قاعة كبيرة مليئة بالناس : رجال من علية القوم في ثياب مترفة ، وأصدقاء الشيخ الذين قدموا ليواسوه في مصابه ، وكان هناك عبيد من أعمار وجنسيات مختلفة ، وقد اعترى الحزن وجوههم جميعا لأنهم كانوا يحبون سيدهم ومفجوعين لفجيعته . جلس في نهاية القاعة أصدقاء علي على أرائك فاخرة ، وراح العبيد يعملون على خدمتهم . أما الشيخ فجلس قربهم على الأرض ، رافضاً الجلوس على السجاد الثمين حزناً على ولده ، وأسند رأسه على يده ، وبدا أنه لم يعر كبير اهتمامه لكلمات المواساة التي همس له بها أصدقاؤه . جلس قبالته رجال مسنون وشبان في ثياب العبيد ، واشار الرجل المسن لأصدقائه الشبان الى أن هؤلاء العبيد هم الذين سيعتقهم علي بانو اليوم . كان منهم عـدد من الفرنجة ، ولفت المسن أنظار الشبان الى واحد منهم كان فتيـاً جـداً وامتاز بوسامة لا توصف ، اشتراه الشيخ من نخاس تونسي منذ بضعة أيام فقط ، ودفع فيه ثمنا كبيرا ، وسيعتقه اليوم ايماناً منه بأنه كلما كثر عدد الفرنجة الذين سيعيدهم الى وطنهم أسرع النبي في إنقاذ ابنه من العبودية .

أعطى الشيخ ، بعد ان وزعت كؤوس الشراب البارد على الجميع ، إشارة الى ملاحظ الرقيق ، فقام هذا الأخير، وعم القاعة صمت مطبق . وقف الملاحظ امام العبيد الذين سيعتقون وقال بصوت عال : ـ « إسمعوا أيها العبيد الذين ستنالون حريتكم نزولاً عند رغبة سيدي الرحيم علي بانو شيخ الاسكندرية . ليلتزم كل منكم بالعادة المتبعة في منزله في مثل هذا اليوم ، وليحكِ لنا شيئاً » .

تهامس العبيد فيما بينهم ، ثم شرع عبد مسن يقص حكايتــه :

* * *

القزم أنف

كم هم مخطؤون يا سيدي أولئك الذين يظنون أن الساحرات والمشعوذين كانوا موجودين في زمن هارون الرشيد حاكم بغداد فقط ، بل هم يؤكدون أن الحكايات التي تتحدث حول أفعال الأرواح وأسيادها ، والتي يمكن سماعها في السوق ، خالية من الحقيقة . لكن الساحرات ما زلن موجودات حتى يومنا هذا ، وقد كنت منذ فترة غير بعيدة جداً شاهداً على حادث ، شاركت فيه الأرواح مشاركة جلية للعيان ، وهذا ما سأرويه لكم .

عاش حذّاء وزوجه بهدوء وسلام أعواماً كثيرة في إحدى كبرى مدن موطني العزيز ألمانيا ، وكان يجلس طوال النهار عند زاوية الطريق ، يصلح الأحذية المختلفة ويصنع أحذية جديدة اذا ما طلب منه ذلك ، لكن على الطالب في مثل هذه الأحوال أن يشتري الجلد مسبقا ، لأن الحذّاء كان فقيرا ولا يملك احتياطيا من النقود . كانت زوجه تبيع الخضار والثمار التي تزرعها في بستان صغير خلف أسوار المدينة ،

وكان الناس يشترون منها عن طيب خاطر ، لأنها كانت ترتدي ثيابا انيقة ونظيفة وتحسن توزيع بضاعتها وعرضها على نحو جميل .

كان لهذين الانسانين المتواضعين إبنا وسيما أهيف لائق الوجه وضخماً كفاية قياساً الى سنه ، اذ كان في الثانية عشرة من عمره . كان يجلس عادة قرب والدته في سوق الخضار ، ويساعد مسرورا ربات المنازل والطباخين ، الذين يشترون منها البضائع الكثيرة والمختلفة ، في نقلها الى بيوتهم ، ونادراً ما كان يعود من هذه النزهات بغير زهرة جميلة أو قطعة نقود صغيرة أو شيء من الطعام ، لأن السادة كانوا يسرون دائما حين يصطحب طباخهم معه ولداً وسيماً ، ويكافئونه بسخاء .

جلست زوج الحذّاء ذات يوم جميل في السوق ، واضعة أمامها كعادتها سلال الملفوف والخضار الأخرى والأعشاب والبذور المختلفة . اما في السلة الأصغر حجما فكانت بواكير ثمار الإجاص والتفاح والمشمش . جلس ابنها يعقوب ـ هكذا كانوا يسمونه ـ قربها ، وراح يصيح بصوت رنان : ـ « تفضلوا أيها السادة وانظروا الى الملفوف العجيب والأعشاب العطرية. إشترين أيتها السيدات بواكير الاجاص. لمن ستكون بواكير التفاح والمشمش ؟ امي تبيع بأسعار رخيصة » .

هكذا كان الولد يصيح عندما مرت في السوق عجوز رثة الثياب شعثاء الشعر . كان وجهها الصغير حادا ، غطته التجاعيد بسبب كبر سنها ، وعيناها حمراوان . أما أنفها الحاد فكان اقنى مثل خطاف ويكاد يلامس ذقنها . سارت العجوز متكئة على عكاز طويل ، وكان غير مفهوم كيف تنقل خطاها ، فكانت تحجل وتعرج متعثرة ، وبدا أن لرجليها مفصلات ، وها هي ستنقلب راسا على عقب فيصطدم انفها الحاد بالرصيف .

أمعنت زوج الحذّاء النظر الى العجوز بانتباه . إنهـا تجلس في السوق كل يوم منذ ستة عشر عاما ولم تر هذه الشمطاء مرة واحدة . لكنها فزعت لا اراديا حين حجلت هذه الأخيرة نحوها ووقفت عند سلالها مباشرة .

سألتها العجوز بصوت منفر أجش ، وراسها يرتجف طوال الوقت :

ــ « هل أنت هاتا بائعة الخضار ؟ » .

أجابت زوج الحذّاء : ــ « نعم،أنا هي . ماذا تريدين؟» .

قالت العجوز : ــ « لنر،لنر . لنلق نظرة على الأعشاب . لنلق نظرة على الأعشاب . لنر إن كان لـديك ما أحتاج

اليه » . وانحنت على السلة ، وراحت تبحث بيديها البنيتين البشعتين في الأعشاب ، فتمسك بأصابعها الطويلة الشبيهة بأرجل العنكبوت الأعشاب المرتبة على نحو جميل وانيق ، وترفعها الواحدة تلو الأخرى الى أنفها الطويل ، ثم تشمها من الجهات جميعها . كاد قلب زوج الحذاء يتمزق حين رات العجوز تعبث بالأعشاب النادرة ، لكنها لم تكن تجرؤ على قول شيء ، لأن انتقاء البضائع هـو حق من حقوق الشاري ، ثم إنها شعرت بخوف غامض من هذه المرأة . راحت العجوز تتمتم بعد أن فتشت السلة كلها : ـ « هذه نفايات وليست بضاعة . هذه نفايات وليست أعشابا . لم أجد ما أحتاج اليه . كانت الأمور أفضل كثيراً منذ خمسين عاماً . هذه نفايات وليست بضاعة . هذه نفايات وليست بضاعـة » .

أزعج هذا الكلام يعقوب ، فصرخ غاضبا :

ـ « إسمعي أيتها العجوز . أين ضميرك ؟ لقد شرعت أول الأمر تنقبين بأصابعك البنية المقرفة في الأعشاب الرائعة، فتدعكينها وتدسينها تحت أنفك الطويل . ان أحداً ممن رأوك تفعلين ذلك لن يشتريها بعد الآن . ثم تتمادين فتنعتين بضاعتنا بالنفايات مع أن طباخ الهرتسوغ نفسه يشتري من عندنا » .

نظرت العجوز بطرف عينيها الى الولد الجريء متهانفة، وقالت بصوت أبح :

ـ « هكذا إذاً يا بني . أهذا معناه أن أنفي الطويل والجميل لا يعجبك ؟ إنتظـر ، فسينمو مثله في منتصف وجهك ، وسيمتط حتى يصل الى ذقنك » .

قالت هذه الكلمات وهي تحجل نحو السلة الأخرى ، التي كان الملفوف فيها ، فاختارت أفضل الرؤوس البيضاء منه وشرعت تدعكها وتضغطها فتهسهس ، ثم رمتها كيفما اتفق في السلة ، وقالت من جديد : ـ « هذه نفايات وليست بضاعة . هذه نفايات وليست ملفوفا » .

زعق الولد خائفا : ـ « لا تهزي رأسك على هذا النحو المقزز . إن رقبتك ليست اغلظ من ساق الملفوف ، فاحذري أن تنكسر ويسقط رأسك في السلة مباشرة . أين سنجد حينئذ من يشتري بضاعتنا ؟ » .

تمتمت العجوز متهانفة : ـ « إذن لا تعجبك الرقاب الدقيقة ؟ لتعلم أنك ستصبح بغير رقبة أبداً ، وسيغوص رأسك بين كتفيك كي لا يسقط عن جسدك النحيل » .

قالت زوج الحذاء أخيرا ، وقد أغضبها أن العجوز لا تفعل شيئا سوى الجس والفحص والشم :

ـ « لا تثرثري بمثل هذا الهراء مع الصبي ، وإذا كنت في حاجـة الى شراء شيء فأسرعي لأنـك شتت الـزبائن الآخريـن » .

هتفت العجوز ، وهي تنظر اليها نظرة شر : « ـ حسنا، ليكن ما تريدين . سأشتري منك رؤوس الملفوف الستة هذه . لكنك ترين انني اتكيء على عكاز ، ولا أقدر على حمل اي شيء . دعي ابنك يحمل لي إياها الى المنزل وسأكافئه على ذلك » .

لم يشأ الصبي الذهاب مع العجوز الشنيعة ، وبكى خوفا منها . لكن أمه أمرته بصرامة بأن يطيعها ، معتبرة أن إلقاء مثل هذا الحمل على كاهل امرأة هرمة وضعيفة هو أمر معيب . أطاعها مجهشا : فجمع رؤوس الملفوف في السلة وسار خلف العجوز في السوق .

لم ينته الأمر سريعا جدا ، واحتاجا الى ثلاثة أربـاع الساعة كي يصلا الى حي بعيد في المدينة ، حيث وقفت العجوز أمام كوخ متداع ، وأخرجت من جيبها خطافا صدئا وأدخلته بمهارة في ثقب القفل . انفتح الباب مصدرا صريرا عاليا ، لكن كم كانت دهشة يعقوب كبيرة عندما دخل الى المنزل فرأى كل شيء مرتبا على نحو رائع . كان السقف والجدران مكسوة بالرخام ، والأثاث مصنوعا من الخشب

الأسود الثمين المطعم بالذهب والأحجار المصقولة . أمـا الأرض فكانت من المرايا ، و كانت ملساء فتزحلق الصبي وسقط عليهـا . سحبت العجوز من جيبها مزماراً فضياً وعزفت لحن أغنية نفذ الى أرجـاء المنزل كلها ، وراحت خنازير هندية تهبط على السلم حالاً ، وبدا ليعقوب غريباً جداً أنها تسير على قوائمها الخلفية، وأنها استبدلت أحذيتها بقشور الجوز وترتدي ثيابا انسانية . أما رؤوسـها فاعتلتها احدث أنواع القبعات .

صرخت العجوز بالخنازير : « ــ أيتهـا المخلوقات الدنيئة عديمة النفع ... أين ذهبت بخفيّ ؟ » . ورمتها بعكازها ، فراحت هذه الأخيرة تزعق وتقفز : « ــ هـل سأقف هنا طويلاً جداً ؟ » .

قفزت الخنازير مسرعة على السلم ، وعادت بقشرين من قشور جوز الهند ، مبطنين من الداخل بالجلد ، وأدخلت قدمي العجوز فيهما بمهارة .

اختفى العرج والحجل ، فرمت العجوز العكاز وانزلقت مسرعة جداً على الأرض الزجاجية جارة يعقوب من يده . وقفت أخيراً في غرفة فيها لوازم وأدوات كثـيرة ، وكانت شبيهة بالمطبخ على الرغم من أن الطاولات المصنوعة مـن

الخشب الأحمر والأرائك فيها مغطاة بالسجاد الفاخر ، الذي يليق أكثر ما يليق بالمنازل الفاخرة .

خاطبت المرأة يعقوب بلطف شديد ، وهي تدسه في زاوية الأريكة وتدفع نحوه الطاولة كي لا يستطيع الخروج : « ــ إجلس يا بنّي ، إجلس ، فرؤوس الناس ليست خفيفة . نعم ، إنها ليست خفيفة » .

هتف الصبي : « ــ أنا لا أفهمك أيتها الجدة . صحيح انني تعب لكنني حملت رؤوس الملفوف . لقد اشتريتها من أمي » .

ضحكت العجوز ، ورفعت الغطاء عن السلة وأخرجت منها رأس انسان ، ممسكة به من خصلة شعره ، ثم قالت : « ــ لا ، أنت مخطىء » .

بهت الصبي ولم يفهم ما حدث بسبب الخوف ، لكنه سرعان ما فكر بأمه ، فإذا سمع أحدهم بهذه الرؤوس فإنه سيتهمها حتماً .

تمتمت العجوز : « ــ انتظر ، سأمنحك مكافأة لقاء طاعتك . فلتصبر قليلاً وسأطهو لك حساءاً ستتذكره طوال حياتك » .

قالت ذلك ، وصفرت من جديد . هرع أول الأمر كثير من الخنازير الهندية المرتدية ثياب الناس ، وقد شدت اليها مآزر المطابخ ، ودست خلف أحزمتها مغارف وسكاكين. ثم أسرعت خلفها قافزة جمهرة من السناجب ، تسير على قوائمها الخلفية ، مرتدية سراويل فضفاضة وعلى رؤوسها قبعات خضر من المخمل ، ويفترض أنهم الطباخون ، لأن هذه السناجب أخذت تتسلق الجدران سريعا وتهبط حاملة المقالي والقصاع والبيض والسمن والأعشاب والطحين ، وتنقلها الى الموقد . أما العجوز فلم تفعل شيئاً سوى السير جيئةً وذهاباً قريباً منها ، في خفيها قشرى جوز الهند ، ورأى الصبي كيف شرعت تسعى جاهدة الى طهو حساء لذيذ له . بدأت النار الآن تفرقع مرحة ، وأخذت المقلاة تدخن وتئز ، وانتشرت في الغرفة رائحة زكيــة . ظلت العجوز تركض جيئة وذهابا ، تتبعها السناجب والخنازير الهندية ، وكلما مرت قرب الموقد دست أنفها الطويل في القدر ، وحين جاش كل شيء أخيراً وغلى ، وتصاعد البخار من القدر وتطاير الزبد على النار ، انزلته عن الموقد وأفرغت محتواه في قصعة فضية ، وضعتها أمام يعقوب .

قالت له : « ـ حسنا يا بني ، حسنا . كل من هذا الحساء ، وستحصل على كل شيء أعجبك فيّ . ستصبح

طباخا ماهراً لأن عليك أن تكون ذا شأن ما ، أما الأعشاب فلن تجدها بأي ثمن . لِمَ لم تكن في سلة أمك ؟ » .

لم يفهم الصبي ما قالته كما ينبغي ، لكنه انكب على التهام الحساء بحمية لأنه أعجبه كثيراً . لقد قدمت له أمه أطعمة لذيذة غير مرة ، لكن أيا منها لم يرق له كما راق له الطعام اليوم . كان الحساء حامضاً وحلواً ودسماً جداً ، تفوح منه رائحة الأعشاب والجذور الطيبة ، وبينما كان يحتسي آخر القطرات من هذا الحساء الفريد أشعلت الخنازير الهندية التبغ العربي ، فتصاعدت منه أعمدة الدخان المائلة الى الزرقة . راحت هذه الأعمدة تتكاثف وتهبط ، وبدأ عطر التبغ يؤثر على الصبي مثل البنج ، وكلما عاد اليه رشده تذكر أن الوقت قد حان ليعود الى أمه ، وحاول النهوض ، لكنه كان يغرق في الوسن من جديد حتى أغفى فعلا على الأريكة عند العجوز .

رأى الولد في منامه أحلاما غريبة ، فبدا له أن العجوز نزعت عنه ثيابه وألبسته جلد سنجاب ، وأصبح في مقدوره الآن أن يقفز ويتسلق على نحو لا يقل عن السناجب . ثم تعرف الى السناجب الأخرى والخنازير الهندية ، وكانت لبقة وحسنة الخلق للغاية ، وانخرط وإياها في خدمة العجوز . عينوه أول الأمر منظف أحذية فقط ، أي كان عليه أن يمسح

قشور جوز الهنـد التي كانت العجوز تنتعلها عوضـا عن الأحذية ، وينظفها حتى تلمع . وقد برع في هذا العمل ، لأنه كلف بمثله غير مرة في منزل والده . حلم أيضا أنه كلف بعد عام تقريبـاً بعمل ادق ، فأمروه بأن يلتقط مـع السناجب الأخرى ذرات الغبار ، التي تتراقص في شعاع الشمس ، وبعد أن يلتقط قدراً كافياً منها كان عليه أن يغربلها بغربال ضيق الثقوب ، لأن صاحبة المنزل كانت تعتبر أن ذرات الغبار الشمسية هذه انعم من اي شيء آخر في هذه الدنيا ، وبعد أن فقدت آخر أسنانها لم تعد قادرة على المضغ جيدا ، فكان على خدمها أن يخبزوا لها الخبز من ذرات الغبار هذه .

بعد مضي عام آخر نقل الى عـداد الخدم الذين كانوا يجمعون مياه الشرب للعجوز . لا تظنوا أنها أمرتهم بحفر بئر أو وضع برميل في الفناء لجمع مياه المطر . لقد أقتضى عملهم مهارة أكبر ، وكانت السناجب ، ويعقوب معها ، تجمع الندى عن الأزهار بقشور جوز الغابة ، وكان هذا الندى هو المياه التي تشربها العجوز . غير أن هذه الأخيرة كانت تشرب كثيراً ، فكان عمل ناقلي المياه صعبا . بعد عام أمروه بالعمل في المنزل ، وكان عليه الحفاظ على نظافة الأرض .. وبما انها كانت مكسوة بالمرايا وسرعان ما تظهر عليها حتى آثار التنفس فإن هـذا العمل لم يكن سهـلا . كانوا يمسحون الأرض بالفرشاة ، وينزلقون في الغرف على نحو ماهر بعد أن يربطوا

الى براثنهم قطعا من الجوخ القديم . ثم عُيّن أخيرا في المطبخ في العام الرابع ، وكانت هـذه الوظيفـة مرموقة ، وكانوا يحصلون عليها بعد اختبارات طويلة . رُقيّ يعقوب هناك من طباخ صغير الى رئيس طباخين برتبة صانع خلائط اللحم، واكتسب خبرة هائلة ومهارة في كل شيء يتعلق بفن الطبخ ، حتى انه كان يدهش غالباً من نفسه ، فقد وصل الى أعلى المناصب ، وتعلم كل شيء ، وصـار في مقـدوره أن يحضر سريعا ألـذ أنواع الطعام التي تخطر على البـال ، وكذلك خـلائط من اللحم يـدخل في تركيبها مائتا نـوع من أنواع التوابل ، وحساءات الخضار من جميع الأعشاب الموجودة على الأرض .

مضت على هذا النحو سبع سنوات في خدمة العجوز ، وارادت مرة أن تخرج من المنزل ، فخلعت حذاءها ــ قشري جوز الهند ، وامسكت السلة والعكاز ، وأمرته بأن ينتف فروجا ويفرمه ويعجنه بالأعشاب ويقليه حتى يحمر الى حين عودتهـا . حضّر يعقوب الفروج وفاقاً لجميع قواعـد فن الطبخ ، فلوى رقبته وسلقه بالماء المغلي ونتفه بمهارة وسحج جلده حتى أصبح أملس وناعما ، ثم أخرج أحشاءه . انبرى بعد ذلك يجمع الأعشاب من أجل الحشوة ، لكنه رأى هذه المرة في غرفة المؤونة ، حيث كانت تحفظ الأعشاب ، خزانة حـائط صغيرة لم يلحظها من قبـل ، وكان بابها مفتوحا ،

فاقترب منها ، يدفعه الفضول الى معرفة ما فيها ، ورأى سلالا فاحت منها رائحة قوية طيبة . فتح واحدة من تلك السلال ، فوجد فيها عشبة ذات لون وشكل خاصين . كانت ساقها وأوراقها سماوية مائلة الى الخضرة ، وفي نهايتها زهرة حمراء نارية لون محيطها أصفر . راح يفحص النبتة ساهما ثم شم الوردة ، فتدفق منها ذلك العطر القوي ذاته ، الذي عبق به حساء العجوز حين طهته له في وقت ما . لكن الرائحة كانت قوية جدا ، فعطس مرة ، ثم عطس عطسة أقوى ، ثم تملكه العطاس واستيقظ .

كان مستلقيا على أريكة العجوز ، وراح ينظر في أرجاء الغرفة مفكراً : « أيعقل أن يحلم امرؤ بمثل هذه الأحلام كما لو انها حقيقة . كان في مقدوري أن أقسم على أنني سنجاب حقير أصاحب الخنازير الهندية وغيرها من الوحوش ، وعلى أنني أصبحت طباخاً ماهراً في الوقت نفسه . كم ستضحك أمي حين سأروي لها ذلك كله . لكنها ستعنفني على الأرجح لأنني غفوت لدى أناس غرباء ولم أساعدها في السوق » . نهض ليخرج من المنزل وهذه الفكرة تشغل رأسه . كان جسده ما زال متخشبا من النوم ، وخصوصا رقبته ، فلم يستطع الإلتفات كما ينبغي ، وأخذ يسخر من نفسه لأنه ما زال وسنا وليس في مقدوره أن يصحو تماما ، ولا يفعل شيئا سوى صدم الخزانة والحائط بأنفه ، وحين يلتفت

التفاتة سريعة فإنه يصدم به قائمة الباب الجانبية . وركضت السناجب والخنازير الهندية وهي تزعق حوله كما لو أنها تريد الذهاب معه ، وعندما وقف عند العتبة دعاها لمرافقته؛ لأنها كانت حيوانات رائعة ، لكنها انزلقت سريعا عائدة على قشور الجوز الى داخل المنزل ؛ ولم يعد يسمع من بعيد سوى زعيقها .

قادته العجوز الى مكان بعيد في المدينة ، ولم يستطع الخروج من الأزقة الضيقة الا بصعوبة بالغة ، لأنها كانت مزدحمة ، وقد تناهى الى مسمعه أن قزما ظهر في مكان قريب ، ولم يسمع من الناس سوى صيحات تقول : « ــ انظروا الى القزم القبيح . من أين أتى هذا القزم ؟ يا لأنفه الطويل .. انظروا الى رأسه الغائص بين كتفيه ، ويديه الفامقتين البشعتين » . كان يعقوب سيهرع في وقت آخر خلف الناس ، لأن أكثر ما يعجبه في هذه الدنيا هو النظر الى العمالقة والأقزام ، أو الى أزياء ما وراء البحار غير العادية ، لكن عليه الآن أن يسرع الى أمه .

حين وصل الى السوق اعتراه الخوف ، فأمه ما زالت جالسة ، وما زال في السلة بضاعة كثيرة . هذا معناه أنه لم يغف طويلاً ، لكن بدا له من بعيد أنها حزينة جداً ، فهي لا تنادي الزبائن بل تجلس مسندة رأسها الى يدها ، ولما

اقترب منها رأى كما لو أنها شاحبة على غير عادتها . أبطأ السير من غير أن يعرف ماذا يفعل ، لكنه جمع قواه وتسلل إليها من الخلف ، ووضع يده بلطف على كتفيها وقال :

ــ « هل انت مريضة يا أماه ؟ أأنت غاضبة مني ؟ » .

التفتت المرأة ، لكنها ارتدت الى الخلف وهي تصرخ خائفة :

ــ « ماذا تريد مني أيها القزم القبيح ؟ إذهب من هنا، إذهب ، فأنا لا أطيق المزاح الغبي » .

سألها يعقوب فزعاً : « ــ ما بك يا أماه ؟ ربما أنت مريضة . لماذاتطردين إبنك ؟ » .

أجابته هانا وهي ترتجف : « ــ قلت لك إذهب في طريقك . لن تحصل مني أيها المسخ الحقير على شيء بألاعيبك» .

فكر الولد مرعوبا : « ــ ربما فقدت عقلها . ماذا أفعل الآن ؟ كيف أنقلها الى المنزل ؟ » .

ــ « عودي إلى رشدك يا أمي العزيزة . انظري الي جيداً . فأنا إبنك يعقوب » .

صرخت هانا وهي تلتفت آلى جاراتها : « ــ لا ، إن مزاحك قد صار وقحاً جداً . أنظروا الى هذا القزم المسخ .

إنه يقف هنا ويخيف الشارين كلهم . لا بل إنه يهزأ من مصابي ، ويقول : أنا ابنك يعقوب . آه منك يا عديم الحياء » .

وهنا اضطربت الجارات ورحن يشتمنه بكل قواهن ، وأنتم تعرفون بأنفسكم كم تحسن البائعات في السوق السباب ، ثم اندفعن نحوه لأنه يهزأ من هاتا المسكينة والمفجوعة ، التي سرق منها منذ سبع سنوات ابنها ذو الجمال الموصوف ، وصرن يهددنه بأنهن سيرتمين عليه كلهن ويخدشنه بأظافرهن أن هو لم يذهب بالحسنى .

لم يعرف يعقوب المسكين بما يفكر ، فهو ، كما يعتقد، ذهب صباح اليوم كالعادة مع أمه الى السوق ، وساعدها في ترتيب الفاكهة . ثم ذهب مع العجوز إلى منزلها وتناول الحساء وغفى بعض الوقت ، وهاهو قد عاد الآن الى السوق . لكن أمه وجاراتها تتحدثن عن سبع سنوات ، ويصفنه بالقزم الكريه . ماهذا الذي يحدث له ؟ حين فهم ان امه لاترغب حتى في سماع ذكره ترقرقت الدموع في عينيه ، ومشى حزينا الى الحانوت الصغير ، حيث كان والده يصلح الأحذية طوال النهار ، وهو يفكر : «سنرى إن كان سيعرفني . سأقف على بابه وسأحادثه » . وقف ، حين أقترب من أبيه الحذاء ، عند الباب ، وألقى نظرة إلى الداخل . كان صاحب الحانوت يعمل بجد ولم يلحظه ، لكنه نظر مصادفة الى الباب

فسقط الحذاء والخيط المشمع والمخرز من يديه على الأرض ، وصرخ مرعوبا :

« ــ يا إلهي ، ماهذا ؟ ماهذا ؟ » .

قال الولد وهو يدخل الحانوت : « ــ مساء الخير . كيف تعيش أيها السيد ؟ » .

أجاب الأب لدهشة يعقوب العارمة : « ــ حالي سيئة ، سيئة أيها السيد الصغير . فعملي غير موفق . إنني وحيد وبدأت أشيخ ، وليس في مقدوري أن أتخذ لنفسي مساعدا » .

أراد القزم أن يستدرج والده ، فقال : « ــ لكن أليس لديك ابن يساعدك في العمل ولو قليلا ؟ » .

« ــ كان عندي ولد يدعى يعقوب ، ولو ظل معي لأصبح الآن شابا ماهرا أهيف في العشرين من عمره ، ولكان في مقدوره مساعدتي على أفضل وجه . نعم ، كانت الحياة ستصبح أجمل . كان في الثانية عشرة من عمره صبيا أريبا وفطنا ، ويتقن مهنتي . كم كان وسيما ولبقا . كان في مقدوره أن يجلب الزبائن ، وكنت سرعان ما سأمتنع عن إصلاح الأحذية وأتفرغ لصنع الجديد منها فقط . لكن الأمور تسير في الدنيا على هذا النحو » .

سأل الولد أباه بصوت مرتجف : « ـ لكن أين ابنك ؟ » .

أجاب الأب : « ـ الله أعلم . سرقوه منا في السوق منذ سبع سنين . نعم ، لقد مر زمن طويل على ذلك » .

هتف يعقوب مرعوبا : « ـ منذ سبع سنين ؟ » .

« ـ نعم يا سيدي الصغير ، سبع سنوات . أذكر ذلك اليوم كما لو أنني أعيشه الآن . فقد أتت زوجي الى المنزل والدموع في عينيها ، وهي تجهش بصوت عال . قالت إنها انتظرت ولدنا طوال النهار بغير فائدة ، وسألت الجميع وبحثت عنه في كل مكان ، لكنها لم تجده . كنت أفكر دائماً بأن ما حدث سيحدث ، وكنت أقول لها هذا . فيعقوب كان طفلاً وسيماً ، وعلينا أن نعترف بذلك ، وزوجي تفخر به ، ويعجبها أن يمتدحه الناس . كانت ترسله ليحمل الخضار الى كل من هب ودب من السادة المرموقين . لم يكن ذلك سيئاً ، فكل مرة كانوا يهدونه شيئاً ما ، لكنني قلت لها : إنتبهي ، فالمدينة كبيرة ويعيش فيها الكثيرون من الناس غير الطيبين . إحرصي على يعقوب . وحدث ما قلته لها ، فقد أتت مرة الى السوق عجوز شمطاء لتستفسر عن أسعار الفواكه والخضار ، ولتشتري في نهاية الأمر قدراً منها لا تقدر على حمله الى منزلها . إن لزوجي قلب طيب ، فأرسلت الولد معها ، ولم نعد نراه منذ ذلك الوقت » .

« هل قلت إن سبع سنوات مرت على ذلك ؟ » .

« ــ في الخريف ستكتمل السنة السابعة . لقد أعلنا عن فقدانه ، وبحثنا عنه من منزل الى آخر وسألنا في كل مكان . كان يعرفه الكثيرون ويحبونه ، فبحثوا عنه معنا لكن عبثاً . لم يعرف احد أيضا تلك المرأة التي اشترت الخضار ، لكن عجوزاً هرمة ، عمرها تسعون عاما ، قالت إن هذه المرأة ربما تكون الساحرة الشريرة بقّولة ، التي تظهر مرة كل خمسين عاما لتشتري اشياء مختلفة » .

كان والد يعقوب يحدثه بذلك ويطرق في الوقت نفسه الحذاء ويشد الخيط المشمع بيديه معا . أصبح واضحا شيئاً فشيئاً للصبي ما حدث له . لقد خدم الساحرة الشريرة سنجاباً سبع سنوات حقيقية، ولم يكن ذلك حلماً، فكاد قلبه يتمزق غيظا وأسى . سرقت العجوز سبع سنوات من سني شبابه ، فعلى ماذا حصل مقابل ذلك ؟ هل أتقن اضفاء البريق على الأحذية من جوز الهند ، والحفاظ على نظافة الغرفــة ذات الأرض المكسوة بالمرايا ؟ هل تعلم من الخنازير الهندية أسرار فن الطبخ ؟ وقف بعض الوقت مفكراً في مصيره فسأله والده في نهاية الأمر :

« ــ هل تريد أن تطلب شيئا ما أيها الشاب ؟ أترغب في زوج احذية أو ــ أضاف مبتسماً ــ ربما غطاء لأنفك ؟ » .

سأله يعقوب : « لماذا أنفي ؟ لِمَ أحتاج الى غطاء له ؟ » .

عارض الحذّاء قائلا : « ــ لكل امرىء ذوقه وعليّ أن أقول لك : لو كان لي مثل أنفك المخيف لطلبت غطاءاً من الجلد اللماع الزهري له .، انظر ثمة قصاصة جيدة بين يدي . صحيح أن الغطاء يحتاج إلى أكثر من مقدار ذراعين ، لكنه سيحميك يا سيدي الصغير . أنا واثق من أنك تصطدم بقوائم الأبواب وبالعربات عندما تريد أن تفسح المجال لها » .

تسمر القزم خوفا ، وراح يتلمس أنفه . كان ضخما ، وطوله لا يقل عن شبرين . هذا معناه أن العجوز قد غيرت هيئته ، لذلك لم تعرفه أمه ، ولذلك كانوا ينعتونه بالقزم القبيح .

التفت الى الحذّاء وهو يكاد يبكي ، وقال : ــ« ألا يوجد بين يديك مرآة أيها السيد كي أنظر إليها ؟ » .

أجابه أبوه جاداً : ــ « أيها السيد ، لم توهب مثل هذه الهيئة كي تنظر إليها في المرآة ، وليس ثمة أي سبب يدعوك إلى ذلك . عليك أن تقلع عن هذه العادة السيئة » .

هتف القزم : ــ « آه ، دعني أنظر الى المرآة ، فالأمر لا يتعلق بحب النظر الى النفس » .

ـ « اتركني بهدوء . لا مرآة عندي . كان لدى زوجي كسرة ولا أدري أين خبأتها . وإذا كان لزاماً عليك النظر إليها فاعبر الشارع الى حيث يعيش أوربان حلاق الذقون. ثمة مرآة عنده أكبر من رأسك بمرتين ، والتتمتع بالنظر إليها . أما الآن فأتمنى لك دوام الصحة » .

رافقه أبوه بهذه الكلمات وهو يدفعه حذراً الى خارج الحانوت ، ثم أغلق الباب خلفه ، وجلس يعمل من جديد . أما يعقوب المحطم تماماً ، فعبر الشارع نحو حلاق الذقون أوربان الذي كان يذكره منذ ذلك الزمن البعيد .

قال يعقوب : ـ « صباح الخير يا أوربان . لقد جئت طالباً منك معروفاً . لتكن طيباً ولتسمح لي بالنظر الى نفسي في المرآة » .

هتف حلاق الذقون ضاحكاً : ـ « بكل سرور . ها هي هنـاك » .

قهقـه بصوت عالٍ كذلك جميع الزبائن الذين كانوا ينتظرون كي يحلق لهم أوربان ذقونهم .

أضاف أوربان : ـ « انك وسيم حقاً ، وقوامك رشيق أهيف . عنقك كعنق البجعة ، ويداك كيدي الملكة . أما انفك

الأخنس الكيّس فلن تجد له مثيلاً أبداً . إنك على الأغلب تنظر إليه كثيراً ، وأنت مصيب في ذلك . حسناً انظر الى نفسك كي لا يقال عني إنني لم أسمح لك حسداً وغيرة بالنظر إلى مرآتي » .

قال حلاق الذقون ذلك وارتج صالون الحلاقة من الضحك . إقترب القزم في أثناء ذلك من المرآة ونظر إليها ، فانهمرت الدموع من عينيه وراح يفكر : « نعم يا اماه ، أنت لن تعرفي ابنك يعقوب طبعاً . كانت هيئتي مغايرة عندما كنت تتباهين بي أمام الناس » . أصبحت عيناه صغيرتان الآن مثل عيني الخنزير ، ونما أنفه على نحو مرعب وتدلى فوق فمه وذقنه . أما رقبته فبدا كما لو أنها لم تكن أبداً ، لأن راسه غاص عميقاً بين كتفيه ، وصار الإلتفات من جهة الى اخرى يسبب له ألماً شديداً . ظل طوله على ما كان عليه قبل سبع سنوات حين كان له من العمر اثنا عشر عاماً . لكنه ، في الوقت الذي ينمو فيه من هم في العشرين من عمرهم طولاً نما عرضاً ، فبرز ظهره وصدره كثيراً ، وصار شبيهاً بكيس غير كبير ، لكنه مملوء عن آخره . حملت جذعه السمين ساقان ضعيفتان ، إعوجتا من ثقله ، لكن يداه في مقابل ذلك كانتا طويلتين جداً مثل يدي رجل مكتمل النمو ، وتلوحان مثل السوط . أما كفاه فقد غلظا واسودا ، وامتطت أصابعهما مثل أرجل العنكبوت ، وكان في مقدوره ، إن هو

اسبل يديه ، أن يلمس الأرض من غير أن ينحني .. هـذا ما صارت إليه حال يعقوب الصغير . لقد تحول إلى قزم قبيـح .

تذكر الآن ذاك الصباح حين اقتربت العجوز من أمه في السوق. لقد وهبته كل ما شجبه فيها يومئذ : الأنف الطويل والأصابع البشعة ، ما عدا الرقبـة الطويلـة المهتزة فقـد ألفتهـا تماماً .

سأله حلاق الذقون مقترباً منه ومتفحصاً إياه ساخراً:

ـ « هل رويت غليلك بالنظر الى نفسـك يا أميري ؟ حقاً ان أحداً لا يرى مثل هذه الهيئة المضحكة حتى في المنام، ومهما سعى الى ذلك.عندي لك اقتراح أيها الرجل الصغير. صحيح أن اناساً كثيرين يدخلون الـى صالوني ، غـير أن عددهم في الفترة الأخيرة صار أقل مما أتمنى ، والسبب في ذلك هو أن جاري حلاق الذقون شاعوم وجد في مكـان ما عملاقاً صار يجذب الزبائن إليه . لكن أن يصبح الإنسان عملاقاً فهذا لا يتطلب مقدرة كبيرة ، أما أن يصير إنسـاناً مثلك فهذا أصعب ولا شك . تعال لتعمل عندي أيها الإنسان الصغير . ستقيم عندي وسأطعمك وأسـقيك وألبسـك . ستكون حر التصرف بكل شيء ، وعليك في مقابل ذلـك أن تقف صباحاً أمام الباب وتدعو الناس إلـي ، وأن ترغـي

الصابون وتقدم المناشف للزبائن ، وأؤكد لك أن أمورك ستسير على نحو غير سيء . سيصبح زبائني أكثر من جاري مع عملاقه ، وسيعطيك الكثيرون الاكراميات » .

كان القزم ممتعضاً في قرارة نفسه من عرض حلاق الذقون ، لكنه اضطر الى التغاضي عن هذه الإهانة ، وأجاب أوربان بهدوء تام بأن لا وقت لديه لمثل هذه الأعمال ، ومضى في سبيله .

على الرغم من أن العجوز شوهت هيئته الخارجية لكنها لم تقدر على الحاق الضرر بعقله ، وقد أدرك ذلك على نحو ممتاز ، لذلك لم يفكر ويحس كما كان قبل سبع سنوات . لا ، لقد أصبح خلال هذه الفترة أذكى وأوعى ، وكان ما يحزنه ليس فقدان وسامته السابقة ، ولا قباحته الحالية ، بل أن أباه طرده من عتبة حانوته مثلما يطرد كلب . لذلك قرر أن يبحث عن سعادته مرة أخرى لدى أمه .

اقترب من والدته في السوق وطلب منها أن تسمعه بهدوء . ذكرها بذلك اليوم حين ذهب مع العجوز ، وذكرها بالحوادث المختلفة من سني طفولته . ثم روى لها كيف خدم الساحرة سبع سنوات في هيئة سنجاب ، وكيف حولته الى قزم يحمل جميع الصفات التي شجبها فيها . لم تعرف زوج الحذاء بماذا تفكر ، فكل ما تحدث به عن طفولته كان

صحيحاً ، لكن عندما صار يؤكد لها أنه كان سنجاباً طوال سبع سنوات أخذت تتمتم قائلة :

ــ « لا ، هذا مستحيل ، ولا يمكن أن توجد ساحرات في الدنيـــا » .

لم تصدق ، بعد أن نظرت الى القزم المشوه، أنه ابنها، وأحست بالكره نحوه. لكنها فضلت في نهاية الأمر أن تتحدث الى زوجها ، فجمعت السلال وأمرته بأن يسير معها . حين وصلا الى حانوت الحذاء قالت له : ــ « إسمع ، ان هـــذا الإنسان يؤكد أنه ابننا المفقود يعقوب . لقد روى لي كيف أخذته منا الساحرة قبل سبع سنوات وسحرته » .

هتف الحذاء مغتاظاً : ــ « هكذا إذاً . أهذا ما حدثك بـــه ؟ إنتظر أيها النذل . لقد حدثته بنفسي منذ ساعة بكل ذلك ، فذهب ليضللك . إذن ، فقد سحرتك يا بني ؟ انتظر لأريك كيف سأسحرك أنا أيضاً » .

أمسك أبوه ، وهو يحدثه بهذه الكلمات ، برزمة مـــن الأحزمة ، كان قد قصها للتو ، وقفز نحوه ولسعه بها على حدبته العالية ويديه الطويلتين ، فصرخ من الألم وهرب وهو يبكـــي .

كان في تلك المدينة ، كما في غيرها وفي كل مكان ، ثمة القليلون من الناس الرؤوفين المستعدين لمساعدة انسان مسكين ، وخصوصاً اذا كان هدفاً للتندر . لذلك لم يجد القزم المسكين ما يأكله أو يشربه طوال النهار ، وحين حل الظلام اضطر الى النوم على طنف احدى الكنائس على الرغم من أنه كان صلباً وبارداً .

حين أيقظته أوائل أشعة الشمس صباح اليوم التالي صار يفكر جاداً كيف سيكسب لقمة عيشه ، ما دام والداه قد طرداه . لقد كان معتداً بنفسه جداً ، ولا يمكنه العمل لافتة لحلاق الذقون . كما لم يشأ أن يلتحق بالمهرجين فيعرض نفسه لقاء نقود . كيف يحيا ؟ وهنا خطر له انه قد تمكن جيداً من فن الطبخ عندما كان سنجاباً ، وافترض ، ولم يكن ذلك بغير أساس ، أن في مقدوره أن يتحدى أي طباخ ، فقرر أن يستغل مهارته تلك .

حين انتعشت الأحياء وشغل الصباح مكانه كاملا دخل الى الكنيسة وصلى ، ثم انطلق في طريقه . عرف عن الهرتسوغ ، مالك تلك البلاد ، أنه كان نهماً ومحباً لأطايب الطعام . وكان يرسل في طلب الطباخين من أرجاء الدنيا المختلفة ، فسار القزم الى قصره . سأله الحراس عند البوابة الخارجية عن مبتغاه ، وأخذوا يهزؤن به كما يحلو لهم . أما هو فطلب منهم السماح له بمقابلة رئيس الطهاة .

قادوه وهم يضحكون عبر البوابة الى الداخل ، فكان الخدم، أينما مر بهم ، يتركون اعمالهم وينظرون اليه ملياً ، ثم يقهقهون بصوت عال وينضمون اليه ، وحين وصل في نهاية الأمر الى سلم القصر كان يسير وراءه موكب كبير حافل بجميع انواع الخدم . لقد ترك ساسة الخيل محساتهم وأسرع العداؤن بكل ما أوتيت أرجلهم من قوة ، ونسي الخدم المكلفون بالسجاد نفض الغبار عنها ، وأخذوا يتزاحمون جميعهم ويتدافعون حتى ضاق المكان بهم كما لو أن العدو قادم اليهم ، وملأ الأرجاء صراخهم : « — قزم ، قزم . هل رأيتم القزم ؟ » .

ظهر ناظر القصر عند الباب ، وكان وجهه متجهماً ، ويحمل في يديه سوطاً هائلاً :

« — خافوا الله أيها الكلاب الملاعين . لِمَ هذا الضجيج ؟ الا تعرفون أن الهرتسوغ ما زال قائماً ؟ » .

ثم رفع السوط ، وراح يلسع ظهور ساسة الخيل والبوابين الواحد تلو الآخر على نحو غير لطيف ابداً ، لكنهم صرخوا قائلين :

« — أيعقل أنك لا ترى أيها السيد ؟ لقد جئنا بقزم لم تر مثيلا له أبداً » .

بذل ناظر القصر جهداً خارقاً حين لحظ القزم كي لا ينفجر ضاحكاً ، لأنه خاف من أن ينال الضحك من هيبته . ثم راح يفرق حشد الخدم بالسوط ، وقاد القزم الى المنزل وسأله عما يريد ، وحين سمع أنه يريد مقابلة رئيس الطهاة عارضه قائلا :

« ـ أنت مخطىء يا بني ، فأنا ، ناظر القصر ، من تحتاج اليه . إنك تسعى الى الإنضمام الى أقزام قصر الهرتسوغ . أليس كذلك ؟ » .

اجابه القزم : « ـ كلا يا سيدي . انني طباخ ماهر وخبير بالمآكل النادرة المختلفة ولتتفضل فتقدني الى رئيس الطهاة ، لعله ينتفع من مهارتي » .

« ـ كما تشاء أيها الصغير . إنك انسان خفيف العقل أنت تريد العمل في المطبخ اذن . لكن إذا التحقت بأقزام البلاط فلن تعمل ، وستأكل وتشرب كما يحلو لك . وستلبس الثياب الثمينة . سنرى على كل حال ، لكنني أستبعد أن تخولك إمكاناتك أن تصبح طباخ الهرتسوغ . ربما ستكون مساعد طباخ جيد » .

امسك ناظر القصر يده ، وقاده الى مخدع رئيس الطهاة بمطبخ الهرتسوغ .

قال القزم وهو ينحني حتى لامس أنفه الأرض : « ــ ألا تحتاج يا سيدي الى طاه ماهر ؟ » .

نظر إليه رئيس الطهاة من رأسه الى أسفل قدميه ، ثم قهقه بصوت عال وقال :

« ــ كيف ، هل أنت طباخ ؟ هل تظن أن الموقد لدينا منخفض على نحو تستطيع النظر فيه الى القدر اذا وقفت على رؤوس أصابعك ومططت رقبتك الى أقصى ما تستطيع ؟ آه منك أيها الحشرة الصغيرة . لقد سخر منك من أرسلك لتعمل عندي طباخاً » .

هذا ما قاله رئيس الطهاة ، وراح يقهقه عالياً . ثم قهقه خلفه ناظر القصر وجميع من كان في الغرفة من الخدم .

لكن القزم لم يهتز ، وقال : « ــ لن يفقر منزل مليء بكل شيء بسبب من بيضتين أو ثلاث وشيء من العصير الحلو والنبيذ والتوابل. دعوني أحضر لكم طعاماً لذيذاً. قدموا لي ما يلزم لذلك وسأطهوه أمام أعينكم ، وستقولون حينئذ : « إنه يملك الحق كاملا في أن يكون طباخاً » » .

قال الصغير هذا الكلام وكلاماً غيره يشبهه ، وكان الإنطباع الذي تركته عيناه البراقتان وأنفه الطويل المتأرجح من جهة الى أخرى وحركة أصابع يديه الدقيقة الشبيهة

بأرجل العنكبوت ، والتى رافقت حديثه ، غريباً ، فهتف رئيس المطبخ متأبطاً ذراع ناظر القصر :

« ــ ليكن ذلك . أنا موافق على ذلك من أجل المزاح فقط . لنذهب الى المطبخ » .

عبروا صالات ودهاليز ، ووصلوا اخيراً الى المطبخ . كان المطبخ غرفة واسعة مجهزة على نحو رائع : فكانت النار مشتعلة دائماً في عشرين موقداً ، وكانت تسيل في الوسط ساقية ، مياهها شفافة ، وتستخدم ايضاً لتربية الأسماك ، وكانت المؤونة،التي يجب أن تبقى في متناول اليد ، موضوعة في خزائن من الرخام وأندر أنواع الخشب . اما في الجهتين اليمنى واليسرى فكان ثمة عشر غرف ، خزن فيها ما هو لذيذ وطيب لا في جميع بلدان الفرنجة وحسب ، بل في الشرق أيضاً . كان خدم المطبخ مسرعين جيئة وذهاباً ، فترن الطناجر والمقالي ، عاملين بالشوكات والمغارف ذات الثقوب، لكن حين دخل رئيس الطهاة الى المطبخ وقفوا جميعهم في أمكنتهم ، ولم يعد أحد يسمع سوى فرقعة النار وخرير الساقية .

سأل رئيس الطهاة أكبر الطباخين وأمهر من يحضر طعام الفطور :

« ــ ماذا طلب مولانا اليوم لفطوره ؟ » .

« ــ لقد تفضل الهرتسوغ وطلب حساء دانماركيا مع كرات لحـم هامبورغي » .

تابع رئيس الطهاة حديثه قائلا : « ــ حسنا ، هـل سمعت ما يريد تناوله مولانا ؟ هل في مقدورك أن تحضر هذه الأصناف ؟ إنك لن تستطيع صنع كرات اللحم أبداً ، فهي سر من أسرارنا » .

أجاب القزم لدهشة الجميع (وكان قد طهى هذه المآكل غير مرة حين كان سنجاباً) :

« ــ لا شيء أسهل من ذلك ، لا شيء أسهل . أعطوني من أجل الحساء العشبة كذا والعشبة كذا ، والتوابل كذا وكذا ، ودهن الخنزير وجذوراً وبيضاً . أما من أجل كرات اللحم ــ أضاف هامساً كي لا يسمعه أحد سـوى رئيس الطهاة والطباخ المسؤول عن الفطـور ــ فإنني أحتاج الى مختلف أنواع اللحوم وقليل من النبيذ ودهن البط وزنجبيل وعشبة تسمى « سلوان المعدة » » .

هتف الطباخ دهشاً :ــ « يا للقديس بنديكت . لدى أي ساحر تعلمت هذا ؟ لقـد ذكرت كل شيء . أما تلك العشبة التي تسمى « سلوان المعدة » فلم نسمع بها أبداً . إنها على الأغلب ستضفي مذاقاً طيباً خاصاً . يا لك من طباخ عجيب » .

قال رئيس الطهاة : ـ « لم أكن أتوقع ذلك . لننتقل الى الاختبار . أعطوه كل ما يطلبه من آنية وغيرها وليجهز الفطـور » .

فعل الجميع ما أمروا به ، وجلبوا كل ما طلب منهم . لكن تبين أن القزم يكاد لا يصل بأنفه الى الموقد ، فقربوا له كرسيين ، ووضعوا عليهما لوحاً من الرخام ، ودعوا هذا الانسان الأعجوبة ليعرض مهارته . أحاط الطباخ ومساعدوه والخدم وغيرهم من الحشم القزم بحلقة واسعة ، وراحوا ينظرون اليه ويعجبون كيف يجهز كل شيء بسرعة ومهارة ونظافة وكياسة . وحين انتهى من تحضير المواد أمرهم بأن يضعوا القِدرين معاً على الموقد ، وبأن يدعوهما يغليان الى أن يشير لهم ، ثم شرع يعد : ـ « واحد ـ اثنان ـ ثلاثة ـ .... » . وعندما وصل الى الـرقم خمسمائة صرخ : ـ « كفى » . فرفعوا الوعائين عن النار ، وطلب القزم من رئيس الطباخين أن يذوق الطعام .

أمر كبير الطباخين إحدى المساعدات بأن تعطيه ملعقة ذهبية ، فغسلها في الساقية وأعطاها لرئيس الطباخين . اقترب هذا الأخير على نحو إحتفالي من الموقد ، واغترف من الطعام وتذوقه ، فرفع عينيه الى الأعلى وطقطق بلسانه مسروراً ، وتمتم قائلا :

ـ « رائع . اقسم بحياة الهرتسوغ أنه طعام رائع . الا ترغب في تناول مقدار ملعقة ايضا أيها السيد الناظر ؟ » .

انحنى ناظر القصر ، وأخذ ملعقة وذاق الطعام ، فلم يستطع أن يثوب الى رشده من السرور والسعادة :

ـ « إنك طباخ جيد يا عزيزي طباخ فطور الهرتسوغ . لكن عليّ أن أقول ، على الرغم من احترامي الشديد لفنك ومهارتك ، انك لن تطهو الحساء وكرات اللحم الهامبورغي على هذا النحو الرائع أبدا » .

ذاق طباخ فطور الهرتسوغ الطعام بدوره ، وشد على يد القزم تقديرا له ، وقال :

ـ « نعم أيها الصغير . إنك معلم في صنعتك ، وعشبة سلوان المعدة تضفي نكهة خاصة على كل شيء » .

دخل المطبخ في تلك الأثناء حاجب الهرتسوغ ، وأعلن أن سيده يطلب الفطور ، فحملوا الطعام له في وعاء فضي ، في حين قاد رئيس الطهاة القزم اليه وراح يتجاذب معه أطراف الحديث . لكن لم يمض وقت كاف حتى التلاوة « أبانا الذي » (وهي صلاة افرنجية اقصر بمرتين من صلاة المسلمين) حتى قدم أحد السعاة وطلب من رئيس الطهاة

المثول بين يـدي الهرتسوغ ، فاستبدل ثيابه سريعا بزي رسمي واتبعه .

بدا ان الهرتسوغ كان راضيا جدا ، اذ التهم كل ما قدم له ، وكان يمسح شاربيه حين دخلا عليه ، فقال :

ـ « اسمع يا رئيس مطبخي . لقد كنتُ حتى هذا اليوم راضياً كل الرضى عن طهاتك ، لكن قل لي : من جهز فطور اليوم ؟ فأنا لم اذق منذ جلست على عرش أجدادي طعاماً الذ مثل هـذا . اذكـر لي ما اسم هـذا الطباخ وسنمنحه بضع دوقيات مكافأة له » .

أجاب رئيس الطهاة قائلا : ـ « إنها يا سيدي حكاية عجيبـة » .

وروى له كيف أتوه صباح اليوم باكرا بقزم يريد أن يعمل طباخا مهما كلفه الأمـر ، وأخبره بكل شيء حدث بعد ذلك .

دهش الهرتسوغ دهشة كبيرة ، ودعا القزم وسأله من هو ، ومن أين قدم . لم يسـتطع يعقوب المسكين إخباره طبعاً بأنه كان مسحوراً وخدم سنجاباً ، لكنه لم يرتكب إثماً في حق الحقيقة ، وأطلعه على أنه صار بغير أب وأم ،

وانه تعلم الطهي على إحدى العجائز . لم يسأله الهرتسوغ مفصلاً ، بل فضّل أن يتسلى بهيئـة طباخه الجديد غير العادية ، فقال له :

ـ « اذا أردت أن تبقى عندي فسآمر بأن يصرف لك كل يوم خمسين دوقية ، إضافة الى ثوب رسمي وسروالين، وعليك أن تحضر لي طعام الفطور بنفسك كل يوم ، وتعلم الطباخين كيف يحضرون طعام الغداء ، وأن تهتم بمائدتي عموما . إن لكل فرد في قصري لقب ما ، وستسمى أنت « أنف » ، وستعين في منصب رئيس طهاة صغير » .

خر القزم أنف أمام هرتسوغ بلاد الفرنجة العظيم ، فقبّل قدميه ، وعاهده على أن يخدمه باخلاص وصدق .

وهكذا استقر الصغير ، وشرع ينفذ واجباته باخلاص . وفي مقدورنا أن نقول إن الهرتسوغ صار إنساناً آخر منذ سكن القزم أنف منزله . فقد كان قبل ذلك كثيراً ما يتنيق ، وتطير القصـاع والصحون التي يقدمونها له نحـو رؤوس الطهاة ، حتى أنه قذف مرة غاضباً رأس رئيس الطهاة نفسه بفخذ عجل قاس ، أفرط في شيه ، فسقط هذا الأخير أرضاً ولم ينهض من السرير بعد ذلك طوال ثلاثة أيام . صحيح أن الهرتسوغ كان يكفر عادة عن أفعاله في سورة غضبه ببضع حفنات من الدوقيات إلا أن الطباخ كان يقدم له

الطعام دائما بحذر وخوف . لكن كل شيء تغير ما إن قطن القزم في منزله كما لو أنه سحره . فصار الهرتسوغ يأكل خمس مرات في اليوم عوضا عن ثلاث كي يتمتع أكبر قدر ممكن بمهارة أصغر خدمه ، ولم تظهر على وجهه أبداً أية تصعيرة تدل على عدم رضاه ، بل على العكس من ذلك فقد بدا له كل شيء جيداً وممتازاً ولذيذاً ، وأصبح لطيفاً ولبق المعاملة وأخذ يسمن يوماً بعد يوم .

كان غالباً ما يدعو رئيس الطهاة والقزم أنف عند الغداء، فيجلس أحدهما الى يمينه والآخر الى يساره ، ويضع في فميهما قطع الطعام اللذيذ بنفسه ، وكانا يحسنان تقدير عطفه هذا أيما تقدير .

عجبت المدينة كلها للقزم ، وكان الكثيرون يسألون المسؤول الأكبر عن مطبخ الهرتسوغ السماح لهم بالقاء نظرة عليه وهو يطهو الطعام . غير أن بعض القادة المرموقين استطاعوا الحصول على إذن من الهرتسوغ كي ينتفع خدمهم من مهارة القزم في المطبخ ، وقد جلب له هذا دخلا غير قليل، لأن كل قائد كان يدفع له نصف دوقية في اليوم ، وكان أنف يعطي النقود التي يتلقاها من هؤلاء السادة لقاء تعليم طباخيهم للطهاة الآخرين كي لا يعكر أمزجتهم الجيدة ولا يثير الحسد في نفوسهم .

عاش أنف على هذا النحو محترماً وفي بحبوحة عامين تقريباً ، ولم يكن يحزنه سوى التفكير بوالديه . ثم جرت معه الحادثة العجيبة التالية : كان القزم أنف يتقن اختيار الحاجيات وكانت عمليات الشراء التي يقوم بها ناجحة دائماً، وإذا سمح له الوقت فانه كان يذهب الى السوق بنفسه ليشتري الطيور والخضار . ومرة ذهب صباحاً الى سوق الإوز بحثاً عن إوزات سمان معلوفة جيداً ، لأن مذاقها كان يروق لسيده . عبر السوق ذهاباً واياباً مرات عديدة ، ونظر الى الطيور جميعها . لم يعد يثير ظهوره هناك الآن القهقهة والسخرية ، بل كان على العكس من ذلك يفرض الاحترام العميق على الجميع . لقد أصبح الناس يعرفون انه طباخ قصر الهرتسوغ الشهير ، وكانت كل بائعة إوز يدير أنفه الى جهتها تكاد تطير فرحاً .

رأى فجأة في زاوية في نهاية السوق إمرأة تبيع الإوز أيضاً ، لكنها لم تكن تمتدح بضاعتها كمثل الأخريات ، ولم تكن تدعو الزبائن إليها . اقترب منها وشرع يتفحص إوزاتها ويقدّر وزنها . كان يحتاج الى مثل تلك الإوزات ، فاشترى ثلاثاً منها مع القفص ، ورماه على كتفيه العريضين وعاد أدراجه الى القصر . بدا له في الطريق غريباً أن إوزتين فقط راحتا تصرخان كما تفعل الإوزات عادة ، في حين جلست الثالثة ساكنة وراحت تتنهد وتتأوه كالناس ، ففكر

قائلا : « لقد مرضت هذه الإوزة . يجب أن أذبحها وأقليها سريعـاً » .

لكن الإوزة أجابت على نحو واضح ، وبصوت عال :

ـ « هيـا
جرب أن تخزني
وسأقرصك حالاً ،
وإذا لويت عنقي
فلن تعيش طويلا » .

وضع القزم أنف القف [illegible] الأرض مذعوراً ، فنظرت الإوزة إليه بعينين معبرتين د [illegible]ين وتنهدت .

هتف قائلا : ـ « وا عجباه . رحماك أيتها الإوزة هل تتكلمين ؟ لم أفكر بذلك من قبل . لكن لا تقلقي ، فمعرفتي بالحياة كافية ، ولن أقضي على طير نادر مثلك . غير أنني أراهن على أنك لم تحملي هذا الريش طوال حياتك ، فقد كنت في زمني سنجاباً حقيراً » .

أجابت الإوزة : ـ « أصبت ، فأنا لم أُخلق في هذه القشرة الوضيعة . آه ، لم يغنِّ أحد في المهد لميمي إبنـة

الســـاحر العظيم فيتربورك بأنهــا ستنهي حياتها في مطبخ الهرتسوغ » .

راح القزم يهدىء من روعها : ـ « لا تقلقي يا ميمي العزيزة ، وصدقيني ، فأنا انسان شريف . كما أنني رئيس طباخين صغير في قصر سعادته ، ولن يجرؤ أحد على أن يلوي عنقك . سأحضر لك غطاء الى غرفي الخاصة ، وستأكلين من الطعام ما يحلو لك ، وسأخصص أوقات الفراغ للتحدث إليك ، وسأقول لخدم المطبخ جميعهم بأنني أعلفك بأعشاب خاصة من أجــل الهرتسوغ ، ثم سأطلقك في أول فرصة مناســبة » .

شـــكرته الإوزة والدموع في عينيها ، أما القزم ففعل ما وعدها به ، فذبح الإوزتين الأخريين ، وجهز لها سقيفة مستقلة بحجة أنه ينوي إطعامها على نحو خاص من أجل إرضاء الهرتسوغ . لم يقدم لها طعام الإوز العادي ، بل راح يغذيها بالمعجنات والحلويات ، وما إن يأتي وقت فراغه حتى يسير إليها ويشاركها الأسى . قص أحدهما على الآخر حكايته ، وعلم أنف أن الإوزة هي إبنة الساحر فيتربورك ، الذي يعيش على جزيرة غوتلاند ، والذي اختلف مع ساحرة عجوز فانتصرت عليه بغدرها ومكائدها ، وثأرت منه بأن حولت ابنته الى إوزة ، ونقلتها الى هنا . اما هي فتمتمت حين أطلعها القزم انف على قصته قائلة :

« ـ من غير الجائز أن أقول إنني غير مطلعة على هذه الأشياء . لقد علمني والدي أنا وأخواتي ما كانت تسمح له بذلك سلطته ، وواضح من كلامك على الخلاف عند سلة الأعشاب ، وعلى تحولك المفاجىء عندما شممت العشبة ، وكذلك من كلمات متفرقة ذكرتها العجوز ورويتها لي أنت أنك مسحور بالأعشاب . فإذا عثرت على العشبة التي فكرت بها العجوز حين سحرتك فإن سحرها سيزول » .

لم يسكن حديثها هذا ألم القزم طبعاً ، فأنى له أن يجد تلك العشبة ؟ لكنه شكرها على الرغم من ذلك ، واستمد من كلماتها شيئا من الأمل .

حلّ في تلك الأثناء على الهرنسوغ أمير يملك الأراضي المجاورة ، وكان صديقا له ، فنادى القزم أنف وقال له :

« ـ آن الأوان الذي ستبرهن فيه على أنك معلم في صنعتك ، وأنك تخدمني بإخلاص وصدق . معروف أن ضيفي الأمير يأكل أفضل من الجميع سواي ، وهو عالم كبير بالأطعمة اللذيذة وعاهل حكيم ، فابذل ما في وسعك كي تكون مائدتي عامرة بأطعمة تدهشه كل مرة أكثر فأكثر ، وإياك في أثناء ذلك أن تقدم صنفاً من الطعام مرتين ما دام مقيما هنا ، وإلا حل عليك غضبي . أسمح لك في مقابل ذلك أن تطلب من خازن أموالي ما تشاء . خذ حتى الذهب والألماس إذا

ما احتجت الى قليهما بالدهن ، فأفضل لى أن أصير فقيراً من أن أحمرّ خجلا منه » .

هذا ما قاله الهرتسوغ ، فانحنى القزم إجلالا وتمتم :
« ــ ليكن ما تريد يا سيدي ، والله شاهد على أنني سأفعل ما في وسعي كي أرضي ذوق ملك المآكل هذا » .

أطلق الطباخ الصغير العنان لمهارته ، ولم يبخل بثروة سيده . كما صار أقل رحمة لنفسه أيضاً ، وكان يجدُ طوال اليوم قرب النار تلفه غيمة من الدخان ، ويرن صوته تحت قباب المطبخ بغير انقطاع ، وكان يتصرف بالمساعدين والطباخين الصغار مثل سلطان حقيقي ...

« ــ كان في مقدوري يا مولاي أن أفعل مثل سائقي الجمال الحلبيين ، الذين كانوا يتحدثون في حكاياتهم التي يروونها للمسافرين ما كان أبطالها يتناولونه من لذائذ الأطعمة ، وكانوا يعددون جميع أنواع المآكل التي تقدم لهم . فيثيرون بذلك شهية سامعيهم ، لا ، بل يثيرون فيهم جوعاً شديداً ، فيخرج هؤلاء زادهم على الرغم منهم ويقيمون الموائد الفخمة ويطعمون سائقي الجمال بسخاء . لكنني لن أقدم على ذلك » .

أقام الأمير الغريب عند الهرتسوغ أسبوعين ، وعاش في بذخ ومرح ، فكانا لا يأكلان في اليوم أقل من خمس مرات ، وبدا الهرتسوغ راضيا عن مهارة القزم ، لأنه أحس بالسرور يغمر وجه ضيفه . لكن الهرتسوغ دعا في اليوم الخامس عشر القزم الى المائدة وقدمه لضيفه وسأله إن كان راضياً عنه ، فرد الحاكم الغريب قائلاً :

ـ « إنك طباخ رائع ، وتعرف حق المعرفة ما معنى أن يأكل المرء على نحو لائق ، وخلال إقامتي هنا لم تقدم صنفاً واحداً مرتين ، وحضرت كل شيء على نحو ممتاز للغاية . لكن قل لي لِمَ لَمْ تقدم طبق السوزرن ملك الأطعمة ؟ » .

فزع القزم فزعاً شديداً ، فهو يسمع أول مرة بملك الأطعمة هذا . لكنه جمع قواه وقال :

« ـ آه يا سيدي ، كنت آمل أنك ستشرفنا بحضورك هنا طويلاً ، فلم أتعجل . بم يستطيع الطباخ الإحتفال باليوم الأخير من إقامتك إن لم يكن بملك جميع الأطباق ؟ » .

عارض الهرتسوغ ضاحكاً : « ـ أهكذا ؟ إنك على الأرجح كنت تنتظر يوم مماتي كي تحتفل به على هذا النحو ، فأنت لم تقدم لي هذا الطبق أبداً . عليك أن تفكر بشيء لهذه المناسبة وقدم لنا طبق السوزرن غداً » .

أجاب القزم : « سمعاً وطاعة » .

وخرج .

لكنه خرج حزينا لأنه أحس بأن يوم العار والتعاسة قد أتى : لم يكن يعرف كيف يطهو هذا الصنف ، فاتجه الى جناحه وراح يبكي حظه العاثر . اقتربت منه الإوزة ميمي ، التي كان مسموحاً لها التجوال في غرفه ، وسألته عما يكدره، ثم قالت حين سمعت بطبق السوزرن :

« ــ أوقف دموعك ، فكثيراً ما كانوا يقدمون هذا الطبق على مائدة والدي ، وأنا أعرف تقريباً ماذا يتطلب . خذ هذا وذلك بهذا القدر وذاك ، واذا لم يكن هذا كل ما يحتاج اليه تحضير الطبق فهذا ليس مصيبة ، ومحال أن يكون سيدنا وضيفه يتمتعان بهذا القدر من حدة الملاحظة » .

هذا ما قالته ميمي . أما القزم فقفز سعيداً ، وبارك ذاك اليوم الذي اشتراها فيه ، وشرع يحضر ملك الأطباق ، فطهى أول الأمر قدراً قليلاً للتجربة ، وهاكم ــ لقد كان الطبق رائعا ، وراح رئيس الطهاة ، الذي طلب منه أنف أن يذوقه ، يمتدحه من جديد ، ويؤكد له أنه لم يعرف في حياته مثيلاً لمهارته .

طهى القزم في اليـوم التالي الطبق بالقدْر المطلوب ، وزينه بالزهور ، وأرسله الى المائدة ساخنا . أما هو فارتدى أفضل ثيابه وذهب الى غرفة الطعام . ولما دخل كان الحاجب يقطع الطبق الى قطع ويقدمها للهرتسوغ وضيفه بشوكة فضية. وضع الهرتسوغ في فمه مسروراً قطعة كبيرة ، ورفع عينيه الى السقف ، وقال وهو يمضغها :

« ـ آه ، آه . حقاً لقد صدق من سمى هذا الطبق ملك المأكولات . لكن قزمي أيضا هو ملك الطباخين . أليس كذلك يا صديقي العزيز ؟ » .

تناول الضيف بضـع قطع ، وراح يمضغها ويذوقهـا باهتمام وهو يبتسم على نحو غامض وساخر ، ثم أجاب وهو يبعد الصحن :

« ـ الطبق حسن التحضير للغـاية ، لكنه ليس طبـق السوزرن الحقيقي كما أعرفه أنا » .

جعد الهرتسوغ حينئذ جبينه حانقاً ، واحمر خجلا ، وهتف :

« ـ أيها الكلب الأجرب . كيف تجرأت وخيبت أمـل سيدك ؟ الا تريـد أن أقطـع رأسك عقابا لك على سـوء طهوك ؟ » .

قال القزم وهو يرتجف : « ـ آه يا سيدي . اسمعني كرمى لكل ما هو مقدس . لقد حضّرت هذا الصنف وفاقا لجميع قواعد فن الطبخ ، ويستحيل أن يكون شيء ما قد فاتني » .

اعترض الهرتسوغ ودفعه بقدمه : « ـ أنت تكذب أيها المحتال ، فلو كان الأمر كذلك لما قال الضيف إن شيئا ما ينقص الطعام . سآمر بتقطيعك الى أشلاء وطهي لحمك » .

زحف الصغير على ركبتيه نحو الضيف ، وضم رجليه وهتف : « ـ الرحمة ، قل ما الذي ينقص هذا الطبق ، ولِمَ لم يرق المذاقك ؟ لا تدعني أموت من أجل حفنة من الطحين واللحم » .

أجاب الغريب وهو يضحك : « ـ لن يساعدك هذا كثيراً يا عزيزي أنف . لقد علمت منذ أمس أنك لن تطهو هذا الصنف كما يطهوه طباخي . إن ما ينقصه هو عشبة لم يسمع بها أحد في بلادكم ، وهي تسمى « العشبة اللذيذة » ، فبغيرها لا يصبح الطعام حاداً ، ولن يكون في مقدور سيدك أن يتناول السوزرن كما أتناوله أنا » .

انتفض الهرتسوغ الإفرنجي ، وهتف مغتاظاً وعيناه تبرقان :

« سأتناوله على الرغم من ذلك كما يجب أن يكون ، وأقسم بشرفي أنني سأقدم لك غداً إما طبق البوزرن كما تتناوله أنت عادة ، أو رأس عديم النفع هذا متدلياً فوق ذروة بوابة قصري . اغرب عن وجهي أيها الكلب الأجرب . إنني أمهلك يوماً آخر أيضا » .

هكذا صرخ الهرتسوغ . أما القزم فتسلل باكياً الى غرفته ، وراح يشكو همه للإوزة ، وأكد لها أن الموت قادم إليه لا محالة ، فهو لم يسمع بهذه العشبة أبداً .

قالت الإوزة : « ــ في مقدوري أن أساعدك في مأساتك هذه ، فقد علمني والدي أن أميز بين الأعشاب ، ولحسن حظك أن القمر الآن هلال وهذه العشبة تنمو الآن ، وإلا لكان الموت مصيرك فعلا . لكن قل لي هل ثمة قرب القصر أشجار كستناء قديمة ؟ » .

أجاب أنف بارتياح : « ــ نعم ، ثمة العديد منها قرب البحيرة على بعد مائتي خطوة عن القصر . لكن لِمَ هذه الأشجار تحديدا ؟ » .

قالت ميمي : « ـ ان تلك العشــبة لا تنمو إلا قــرب جذور أشجار الكستناء القديمة ، وعلينا أن لا نضيع الوقت هباءً . لنبحث عنها . خذني تحت ابطك ، وعندما نصير في الخلاء أطلقني وسأبحث عنها » .

فعل كما قالت له ، واتجها معاً الى بوابة القصر . لكن البواب اعترض طريقه هناك وقال :

« لقد ولت أيامك الذهبية يا عزيزي انف . أنت ممنوع من الخروج من القصر ، وقد تلقيت أوامر صارمة جداً بهذا الشأن » .

عارض القزم قائلاً : « ـ لكن الا أستطيع الذهاب الى البســتان ؟ إصنع معروفا وأرسل أحــد رجالك الى ناظر القصر ، وليسأله إن كنت أستطيع الذهاب الى هناك لأبحث عن الأعشاب » .

فعل البواب ذلك ، وحصل القزم على الإذن بالخروج لأن البستان كان محاطا بسور عــال ، وكان يصعب حتى التفكير بالهروب من هناك . حين صار أنف والإوزة ميمي حرين أنزلها حذراً الى الأرض فركضت أمامه مسرعة نحو البحيرة ، حيث تنمو أشــجار الكستناء . تبعهــا وقلبــه يؤلمه ، فقد كان هذا أمله الأخير والوحيد ، وقرر حازماً

ان الأفضل له أن يرمي نفسه في البحيرة إذا لم تجد الإوزة العشبة المطلوبة . راحت الإوزة تبحث بحمية من شجرة الى اخرى ، وتفحص جميع الأعشاب بمنقارها ، لكنها لم تجد شيئاً ، فأخذت تبكي خوفاً وشفقة لأن المساء قد أتى وصار صعبا تمييز الأشياء .

هنا وقع نظر القزم على الجهة الأخرى للبحيرة فصرخ:

ـ « أنظري ، أنظري ، ففي تلك الجهة من البحيرة تنمو ايضا شجرة قديمة كثيفة الأغصان . لنذهب ونبحث تحتها، فربما كانت سعادتي تنمو قربها » .

قفزت الاوزة وطارت أمامه . أما هو فركض في إثرها بكل ماأوتيت ساقاه القصيرتان من قوة . كانت شجرةالكستناء تلقي بظل كبير، وكانت السماء اظلمت أيضاً ، فصار البحث مستحيلاً تقريباً . لكن الإوزة وقفت فجاءة وصفقت بجناحيها فرحا ، ثم دست رأسها سريعا في جفنة أعشاب عالية وقطعت شيئا ما بمنقارها وقدمته على نحو احتفالي لأنف المبهوت ، وقالت :

ـ « هاهي العشبة ، وهي تنمو هنا بكثرة . لذلك لن تعاني بعد الآن من البحث عنها أبداً » .

نظر القزم إلى العشبة ساهما ، فقد فاحت منها رائحة عطرة ذكرته على الرغم منه بقصة تحوله ، وكانت الساق والأوراق ذات لون أخضر سماوي ، والزهرة حمراء نارية وحوافها صفراء .

هتف أخيراً : ـ « الحمد لله . يا لهذه الأعجوبة . أتعلمين ، إنني أظن أن هذه العشبة هي ذاتها التي حولتني من سنجاب إلى مشوه حقير . هل أجرب حظي ؟» .

رجته الإوزة قائلة : « ـ إنتظر . خذ معك باقة من هذه العشبة ولنعد الى غرفتك كي تجمع نقودك وحاجياتك ، وعندئذ سنجرب قوة العشبة » .

هذا ما فعلاه ، فعادا الى غرفته وقلبه يدق بصوت عال لهفة ، وهناك حزم ثيابه وحذاءه وخمسين أو ستين دوقية هي حصيلة ماوفره ، ثم قال :

ـ « إذا شاء الله فسأتخلص من هذا العبء الآن » .

ودس أنفه عميقا في العشب ، وشم عطره .

أحس هنا كيف بدأت عظامه تطول وتفرقع ، وكيف راح رأسه يرتفع من بين كتفيه . ثم أمال نظره نحو أنفه فرأى

كيف يتقلص ويتقلص ، وشعر كيف استقام ظهره وصدره وكيف استطالت ساقاه .

نظرت الإوزة وهتفت دهشة : ـ « كم أنت كبير ووسيم . الحمد لله ، لم تبق أيضا أي آثار من ذاك الذي كنته » .

فرح يعقوب كثيراً لذلك ، فضم يديه وصلى . لكن فرحه العارم لم ينسه كم هو مدين للإوزة ميمي . وعلى الرغم من أن قلبه كان يدفعه إلى والديه إلا أن العرفان بالجميل طغى على هذه الرغبة ، وقال : « ـ لمن أدين أنا ، إذا لم أكن لك بانني وهبت أن أكون أنا من جديد ؟ لولاك لما وجدت هذه العشبة مهما فعلت ، وهذا معناه أنني كنت سأحافظ على هيئتي الوضيعة إلى الأبد ، وربما كنت سأضع راسي تحت المقصلة . حسنا ، لن أكون ناكراً لمعروفك ، وسأوصلك الى أبيك ، فهو عالم في أنواع السحر ، وسيزيله عنك بغير جهد» .

بكت الإوزة فرحا ، ووافقت على اقتراحه ، واستطاعا التسلل من القصر خلسة وانطلقا الى شاطىء البحر ـ إلى موطن ميمي ...

... ماذا سأروي لكم أيضا ؟ هل أحدثكم عن وصولهما بسلامة إلى نهاية طريقهما ، وكيف أزال فيتربورك السحر عن

ابنته ، وكيف كافأ يعقوب بسخاء وأطلقه الى منزله ، وكيف عاد الى مدينته وعرف والداه في هذا الشاب الوسيم إبنهما الضائع ، وكيف اشترى بالهدايا التي حمله إياها فيتربورك حانوتاً وعاش سعيداً وميسوراً ؟

سأحدثكم فقط بما جرى بعد رحيل يعقوب عن قصر الهرتسوغ . إذ أعلن هناك استنفار مخيف حين أراد الهرتسوغ في اليوم الثالي أن يبر بقسمه ، ويطيح برأس القزم إذا لم يجد الأعشاب المطلوبة ، فلم يعثر له على أثر . وقد أكد الضيف أن الهرتسوغ قد ساعده على الهرب كي لا يفقد أفضل طباخيه ، واتهمه بأنه حنث بقسمه ، فنشبت بسبب ذلك حرب عظيمة بين الحاكمين ، وهي معروفة جيداً في التاريخ باسم « حرب الأعشاب » ، وقد حدثت بينهما أكثر من معركة . لكنهما عقدا في نهاية الأمر صلحاً ، وسُمي هذا الصلح « صلح طبق السوزرن » ، لأن طباخ الأمير قدم في الحفل الذي أقيم لهذه المناسبة طبق السوزرن ملك المأكولات ، وقد راق للهرتسوغ كثيراً .

ها هي يا سيدي حكاية القزم أنف ، فصغائر الأحداث غالباً ما تؤدي الى نتائج ضخمة .

هذا ما رواه العبد من بلاد الفرنجة . حين انتهى أمر الشيخ علي بانو بان يقدموا له وللعبيد الآخرين الفاكهة كي

يتقووا ، وفي أثناء تناولهم هذه الفاكهة راح يتجاذب أطراف الحديث مع أصدقائه . أما الشبان الذين أتى الرجل المسن بهم الى هنا فأخذوا يمتدحون الشيخ ومنزله وزينته كلها .

قال الشاب الناسخ : ــ « حقاً ، ليس ثمة متعة تفوق متعة سماع الحكواتي . لو استطعت لجلست أياماً كاملة ، ضاماً قدمي ومتكئاً بمرفقي على الوسادة ، ومسنداً راسي الى يدي ، ولأمسكت باليد الأخرى ، إن كان ذلك متاحاً ، نرجيلة الشيخ الكبيرة ، ورحت أسمع وأسمع . هكذا أتخيل الحياة في بساتين جنة محمد » .

قال المسن : ــ « ما دمت فتياً وقوياً فأنا لا أصدق أن الخمول يفتنك . لكنني أوافقك على أن سماع الحكاية يولد إحساساً بسحر خاص ، فعلى الرغم من أنني مسن بلغ من العمر ستاً وسبعين عاماً ، وعلى الرغم من أنني سمعت في حياتي الكثير ، إلا أنني لن أعبر غير مبالٍ قرب حكواتي يجلس عند زاوية الطريق ، وقد أطبقت حوله حلقة المستمعين ، وسأجلس معهم وأسمع ، فأعيش جميع المغامرات التي يرويها في الحكاية ، وأرى الناس والأرواح والساحرات والعالم الساحر الرائع الذي يحيط بهم ، والذي لا نراه في حياتنا المبتذلة العادية ، وعندما أبقى وحيداً بعد ذلك يظل لدي ما أتذكره كمثل الرحالة المحتاط للصحراء ، الذي لا ينقصه ماء ولا شراب » .

أنضم الى الحديث شاب آخر فقال : ــ « أنا لم أفكر أبداً أين يكمن سحر هذه القصص، لكنني أحس بما تحسونه أيضاً ، وحين كنت طفلاً يتشاقى كانوا يهدئونني بالحكاية . بداية كان الأمر سيان عما يدور الحديث ، على أن لا يكفوا عن الكلام ، وعلى أن تكون الحكاية مليئة بالمغامرات المختلفة. لم اكن أمل سماع القصص التي إبتدعها أناس حكماء واضعين فيها ذرة من حكمتهم الخاصة ، كحكاية الثعلب والغراب الغبي وحكاية الثعلب والذئب وعشرات الحكايات عن الوحوش . أما عندما كبرت وصرت أعاشر الناس أكثر فلم تعد تكفيني القصص القصيرة ، وصرت الآن أرغب في حكايات أطول عن الناس ذوي المصائر غير العادية » .

فاطعه واحد من أصدقائه قائلاً : ــ » نعم ، أنا أذكر أيضاً تلك الفترة ، وقد كنت أنت من غرس فينا حب الحكايات المختلفة . كان أحد عبيدكم يحسن رواية الحكايات ، ويحكي منها مقدار ما يحكيه سائق جمال في الطريق من مكة الى المدينة ، فكان يجلس بعد أن ينهي أعماله على المرجة الخضراء أمام المنزل ، ونشرع نلح عليه حتى يبدأ يقص علينا الحكايات ، التي كانت تطول وتطول الى أن يحل الظلام » .

قال الناسخ متذكراً : ــ « ألم تتكشف حينئذ أمامنا بلاد جديدة غير مرئية ، ومملكة العباقرة والسحرة ، حيث

تنمو الأشجار النادرة بكثرة ، وحيث تقوم قصـــور الزمرد والياقوت الأحمر الفخمة والمسكونة بالعبيد المردة ، الذين يظهرون لدى أول نداء ما أن يُدار الخاتم بضـــع مرات أو حين يُمسح المصباح السحري أو حين تُنطق كلمة سليمان فيأتون بالأطعمة الفاخرة في صحاف ذهبية ؟ كنا ننتقل الى تلك البلاد لا إرادياً مع السندباد، لنرافقه في رحلاته العجيبة عبر البحار ونجول مساءً في الطرقات مع هارون الرشيد أمير المؤمنين الحكيم ، وكنا نعرف وزيره جعفر كما نعرف أنفسنا ـ إختصاراً ، لقد عشنا في الحكايات مثلما نعيش ليلاً في الأحلام ، ولم يكن خلال اليوم كله ثمة فترة أفضل مـــن المساء ، إذ كنا نجتمع في المرجة الخضراء ويطلق العبد المسن العنان لرواياته . لكن قل لنا أيها العم : ما السبب في اننا كنا نسمع الحكايات حينئذ بمثل هذا الشغف ، وما زلنا الى الآن لا نجد شيئاً أمتع منها لقضاء الأوقات ؟ أين يكمن سحر الحكاية العظيـــم » .

رد الرجل المسن : ـ « سأفعل حالاً . إن عقل الإنسان أخف من الماء المنسال ، الـــذي يكتسب أي شـــكل وينفـــذ تدريجياً الى الأجسام الكتيمة . إنـــه خفيف وحر مثـــل الهواء ، ويصير مثل الهواء أخف وأنقى كلما حلق عالياً عن الأرض. لذلك تعيش في كل إنسان منا الرغبة في السمو فوق الرتابة اليومية والتعلق بحرية وسهولة في الأجواء ، حتى لو

كان ذلك في الحلم على الأقل . » لقد قلت بنفسك يا صديقي الشاب : ـ « لقد عشنا في تلك الحكايات ، وفكرنا وشعرنا مثل أولئك الناس » ـ من هنا يأتي ذلك السحر الذي تحمله الحكايات لكم ، فأنتم حين تصغون الى حكايات العبد والى الفكرة التي أبدعها غيركم فانكم تبدعون معه ، ولا تقفون عند ما يحيط بكم من أدوات وعند أفكاركم ـ لا ، بل إنكم تعايشون كل شيء . لقد حدثت جميع الأعاجيب معكم أنتم، وشاركتم على هذا النحو بما جرى لذاك الذي تحكي الحكاية قصته ، وهكذا فان عقلكم قد ارتفع على خيط الحكاية فوق ما هو موجود وفوق مايبدو لكم غير رائع كفاية وغير جذاب كفاية ، وروحكم قد طارت حرة طليقة في أعالي الجبال غير المرئية ، فتصير الحكاية حقيقة في أحاسيسكم ، أو ، إذا شئتم ، تصير الحقيقة حكاية لأنكم أبدعتم وعشتم فيها » .

قاطعه التاجر الشاب قائلا : ـ « أنا لم أفهمك تمام الفهم . لكنك محق عندما قلت إننا عشنا في الحكاية ، أو أن الحكاية عاشت فينا . إنني ما زلت أذكر تلك الفترة السعيدة حين كنا نحلم يقظين في أوقات الفراغ . كنا نتخيل وكأننا جزرنا الى الصحارى والجزر الخالية من الناس ، فنتشاور فيما علينا اتخاذه من تدابير كي نحسن حياتنا ، وكثيراً ما كنا نبني الأكواخ في أدغال الصفصاف الموحشة ، نحضر لأنفسنا موائد فقيرة من الثمار المهترئة على الرغم من اننا كنا قادرين

على الحصول على أفضل الأطعمة من المنــازل التــي كانت لا تبعد عنا أكثر من مائة خطوة . يا لتلك الفترة حين كنــا ننتظر ظهور الساحرة الطيبة أو المارد العجيب ، اللذين كانا سيقتربان منا ويقول أحدهما : ــ « سننشق الأرض الآن . فلتتفضلوا بالدخول الى قصري الزجاجي ولتتناولوا تلــك الأطعمة التي سيقدمها لكم خدمي السعادين » .

ضحك الشبان ، لكنهم اتفقوا على أن صديقهم يقول الحقيقة عينها ، وقال أحدهم :

ــ « ما زلت أقــع الى الآن أحياناً تحت تأثير السحر السابق ، فأنا سأغضب غضباً شديداً مثلاً من أخي علــى مزاحه الغبي إذا ما تسلل إليّ وقــال : ــ « هــل سمعت بالمصيبة التي حلت بجارنا الخباز السمين ؟ لقد تشاجر مع الساحر فحوله هذا الأخــير الى دب عقاباً له ، وهــو الآن مستلق في غرفته ويبكي يائساً » . كنت سأغضب وسأنعته بالكاذب ، لكن الأمر كان سيختلف تماماً إذا ما قيل لي إن جارنا السمين قد ذهب في رحلة بعيدة الى بلدان غريبة غير مرئية ، ووقع هناك بين يدي ساحر فحوّله الى دب . كنت حينئذ سأنتقل مع جارنا الى الحكاية تدريجــاً ، فأسافر معه وأرى العجائب ، وما كنت سأدهش كثيراً إذا ما بــدا محشوراً في جلد حيوان ما ويسير على أربع » .

قال المسن : ـ « ومع ذلك ثمة قصص ممتعة جداً لا تظهر فيها الساحرات ولا السحرة ، ولا توجد فيها قلاع زجاجية وأوراح تقدم المآكل النادرة ، ولا طائر الرخ أو الحصان الطائر. إنها قصص من نوع مغاير، وهي ليست تلك التي تسمى حكايات عادة » .

سأل الشبان : ـ « ماذا تقصد ؟ إشرح لنا على نحو أفضل . حكايات من نوع آخر ؟ » .

ـ «أنا أرى أن علينا أن نفرّق بين الحكاية وتلك التي تسمى عادة أقصوصة ، فإذا قلت إنني أنوي أن أحكي لكم حكاية فإنكم ستحسبون مسبقاً حساب المغامرات البعيدة عن الحياة اليومية ، والتي تجري في عالم تختلف طبيعته عن طبيعة الأرض . . . أو ، لنقل على نحو أوضح ، انكم تستطيعون في الحكاية أن تأملوا بظهور كائنات أخرى وليس الناس الفانون فقط ، فتدس القوى الخفية أنفها في مصير بطل الحكاية ، وكذلك السحرة والمشعوذون والأرواح وأسيادها ، لترتدي الحكاية كلها حلة ساحرة غير عادية ، وتبدو تقريباً مثل سجادنا القماشي ورسوم أفضل صناعنا ، الذين يسميهم الفرنجة أرابيسك . لقد حُرم على المسلم المؤمن أن يصور برسومه وألوانه الانسان الذي خلقه الله ، لذلك نرى على الأقمشة رؤوس الناس متضافرة مع الأشجار

والأغصان ، والناس المتحولين إلى شجيرة أو سمكة . أي الأشكال التي تذكرنا بالحياة العادية لكنها غير عادية . هل تفهمونني ؟ » .

قال الناسخ : « يبدو لي أنني قد بدأت أحزر غايتك . لكن تابع »

« ــ هكذا هي الحكاية ، ساحرة وغير عادية ، ومثيرة لأنها بعيدة عن الحياة اليومية ، وغالبا ما ينسبونها الى بلاد غريبة أو الى زمن سحيق . ثمة في كل بلد ، ولدى كل شعب مثل هذه الحكايات ، وهي كثيرة ، كما يقولون ، عند الأتراك والفرس والصينيين والمغول ، وحتى في بلاد الفرنجة . هذا ما قاله لي كافر عالم ، لكنها ليست جيدة مثل حكاياتنا ، فهم يستبدلون الساحرات الرائعات ، اللواتي يقطن القصور الجميلة ، بمشعوذات هن مخلوقات شنيعة شريرة تقطن في أكواخ حقيرة وتخترق الضباب ممتطية صهوة مكنسة عوضا عن أن تسبح في زرقة السماء في محارة تحملها الغرافين(١) ثمة في حكاياتهم مردة وأرواح تحت أرضية ، وهي كائنات صغيرة ممسوخة تحب الألاعيب الشريرة. هذه هي الحكايات. أما الأقاصيص فهي نوع مغاير ، وتجري أحداثها على الأرض ونصادف مثيلاً لها في حياتنا العادية، والممتع فيها هو مصير

(١) ــ الغرفون هو حيوان خرافي نصفه نسر ونصفه أسد (المعرب)

البطل الغامض ، الذي يفتقر ويغتني ويحالفه الحظ أو يتخلى عنه بغير سحر أو لعنة الساحرات أو حيلهن كما يحدث في الحكايات ، بل بفضل اعتماده على نفسه أو بفضل تشابك الأحداث الغريب » .

تابع أحد الشبان الحديث قائلاً : « ــ صدقت ، فما روته شهرزاد في « ألف ليلة وليلة » هي قصص خالية من أي شيء عجيب ، وأغلب مغامرات الخليفة هارون الرشيد ووزيره هي من هذا النوع ، إذ كانا يتنكران ويغادران القصر ، فيتعرضان لظواهر غير عادية ، ثم يحل كل شيء على نحو طبيعي تماماً » .

تابع المسن قائلا : « ــ علينا أن نعترف على الرغم من كل شيء بأن هذه القصص ليست القسم الأسوأ من « ألف ليلة وليلة » ، وهي في الوقت نفسه مختلفة عن حكاية الأمير بيريبينكر أو الدراويش العوران الثلاثة ، أو حكاية صياد السمك الذي أخرج من البحر حصالة النقود المختومة بختم سليمان . لكن سحر الحكاية والقصة ينبع في نهاية الأمر من منبع أساسي واحد ، هو اننا نحس بشيء مميز وغير عادي ، وهذا الشيء في الحكاية هو إقحام العجائب والسحر في حياة الانسان العادية . أما في القصة فيحدث كل شيء وفاقا للقوانين الطبيعية لكن على نحو غير عادي للغاية » .

هتف الناسخ : « ـ غريب أن سير الأشياء الطبيعي في الأقاصيص يجدبنا مثلما تفعل بنا الأمور الخارقة في الحكايات. ما السبب في ذلك ؟ » .

أجاب المسن : « ـ يكمن السر في تصوير الانسان . ففي الحكاية المفعمة بالأعاجيب يكون سلوكه وفاقا لإرادته قليلا الى حد نجد فيه الأشكال والطبائع المنفصلة مرسومة على عجل . لكن الأمر يختلف في القصص العادية ، حيث يصير الأهم والأجمل هو فن نقل الكلام وسلوك كل فرد وفاقاً لطبعه » .

قال التاجر الشاب : « ـ لقد صدقت حقا ، فأنا لم افكر مرة واحدة كما ينبغي ، وكنت انظر واسمع ولا اقف عند أي أمر ، مسروراً تارة ومصاباً بالملل تارة أخرى من غير أن أعرف السبب . لكنك تهبنا الآن مفتاح اللغز والمحك لنقوم بالاختبار ونحكم على الأمور على النحو الصحيح » .

رد المسن قائلا : « ـ افعلوا هكذا دائما ، وستزيد متعتكم حين ستتعلمون التفكير بما سمعتموه . لكن انظروا ، ها هو العبد التالي يهم بسرد حكايته » .

هذا ما كان فعلا ، وشرع العبد الآخر يتحدث :

* * *

الانكليزي الشاب

أنا يا سيدي الماني المنشأ ، وعشت في بلادكم قليلا . لذلك لن يكون في مقدوري أن أفرج عن صدرك بحكاية فارسية أو قصة ممتعة عن السلاطين والوزراء ، بل أطلب السماح لي بأن أروي لكم ما حدث في موطني ، فعسى أن يسليك هذا أيضاً . إن قصصنا ، يا للأسف ، ليست نبيلة دائما مثل قصصكم ، فلا يدور الحديث فيها عن السلاطين والملوك ، ولا عن الوزراء والباشاوات ، الذين نسميهم عندنا وزراء عدل ومالية ، وكذلك مستشارين سريين أو شيئاً من هذا القبيل ، بل تدور أحداثها حول فئة من الناس العاديين ما لم تحكي على الجنود .

تقوم في الجزء الجنوبي من المانيا مدينة غريونفيزل الصغيرة ، وفيها والدت وكبرت . إن لأمثال هذه المدينة الصغيرة وجه واحد ، ففي المركز ساحة السوق غير الكبيرة ، وفيها بئر ، يقوم عندها مبنى البلدية القديم ، وحولها منازل قضاة الصلح والتجار المرموقين . أما السكان فيعيشون في

زقاقين أو ثلاثة أزقة ضيقة . جميع الناس في هذه المدينة يعرف بعضهم بعضا ، وكل فرد يعلم ما يحدث وأين ، وحين يقدم طبق فائض على مائدة الأسقف او رئيس البلـدية أو الطبيب فان الجميع يعلمون بذلك الى أن يحين موعد الغداء ، فتذهب النسوة مساء ليزرن بعضهن بعضاً ، ويبدأن يناقشن هذا الحدث الجلل مع فنجان قهوة وقطعة من الحلـوى ، ليخرجن في النهاية بنتيجة مفادها أن الأسقف قد اشترى على الأغلب ورقة يانصيب وربح على نحو مخز الكثير مـن النقود ، او أن أحدهم قد رشا رئبس البلدية ، أو أن الطبيب قد حصل من الصيدلي على بضعة نقود ذهبية كي يصف ادوية كثيرة وغالية مستقبلا . في مقدورك يا سيدي أن تتخيل كم هو مزعج لمدينة مستقرة على هذا النحو كفريونفيزل قدوم انسان لا يعرفه أحد ، ولا يعلم من أين أتى ومن اين يعيش وماذا يريد . صحيح أن رئيس البلدية قد شاهد جواز سفره وهو ورقة على كل فرد منا أن يحملها معه » .

قاطع الشيخ العبد قائلاً : « ــ أيعقل أن طرقكم تعج بالفوضى على هذا النحو ، حتى صار لزاماً على كل فرد منكم أن يحمل فرماناً من سلطانكم كي يفرض الإحترام على اللصوص ؟ » .

أجاب العبد : « ــ لا يا سيدي ، فهذه الورقة لا تخيف الأشرار ، وهي من أجل إحلال النظام كي يعرف كل فرد منا

مع من يتعامل . وهكذا فقد درس رئيس البلدية جواز سفر الرجل ، وعبر عن رأيه مع فنجان قهوة عند الطبيب فقال :
« ــ على الرغم من أن تأشيرة السفر من برلين الى غريونفيزل صحيحة على جواز سفره إلا أن ثمة شيء ما وراءه ، فهيئته تثير الشك » . كان رئيس البلدية يحظى في المدينة باحترام كبير ، لذا لم يكن عجيباً أن ينظر أهلها الى الغريب منذ قدومه كما ينظرون الى شخص مريب . أضف الى أن نمط حياته لم يثنهم عن ظنهم هذا ، فقد استأجر لقاء بضعة نقود ذهبية منزلا كان خالياً من قبل ، ونقل اليه مركبة بضائع مليئــة بالأدوات الغريبة كالمدافىء والأكوار والبواتق الكبيرة، وعاش في وحدة تامة ، فكان يطبخ لنفسه الطعام ولم يزره زائر عدا أحد سكان غريونفيزل المسنين ، الذي كان عليه أن يشتري له الخبز واللحوم والخضار ، لكن لم يسمح له بالدخول الا الى الممر ، وكان الغريب يستلم الأشياء منه هناك .

كنت قد بلغت من العمر عشر سنوات حين ظهر الغريب في مدينتنا ، لكنني ما زلت أذكر الى الآن ذلك الاضطراب الذي أثاره هذا الرجل في المدينة كما لو انه حدث أمس . لم يكن يذهب بعد الغداء كمثل الرجال الآخرين الى صالة البولينغ ، ولم يذهب في الأمسيات الى الفندق كي يدخن الغليون مثلهم ويتجاذب أطراف الحديث حول ما يكتب في الصحف. وعبثاً حاول رئيس البلدية وقاضي الصلح والطبيب والأسقف كل بدوره دعوته إليهم على الغداء أو تناول فنجان

من القهوة ، إذ كان يعتذر كل مرة متذرعاً بحجة ما . ظن بعضهم أنه غير طبيعي وبعضهم أنه يهودي . أما الآخرون فأكدوا بإلحاح وعناد أنه ساحر ومشعوذ ، وحين بلغت الثامنة عشرة ثم العشرين من عمري كانوا ما يزالون يدعونه غريبـــا .

حدث مرة أن قدم الى مدينتنا أناس مصطحبين حيوانات من ما وراء البحار . كان امثال اولئك الهزليين المتجولين يطوفون المدينة عادة مع جمالهم القادرة على الإنحناء ودببهم الراقصة وكلابهم المضحكة التي ترتدي ثيابا مثل ثياب الناس وقرودهم التي تتقن الألعاب المختلفة، ويقفون عند التقاطعات وفي الساحات ، ويعزفون على المزمار والطبل ألحانا سيئة للغاية ، فيشرع أفراد فرقتهم يرقصون على أنغامها ثـم يجمعون النقود من المنازل . امتازت الفرقة التي ظهرت في غريونفيزل هذه المرة بانسان غاب(١) ضخم ، في مثل طول الانسان تقريباً ويسير على قائمتيه الخلفيتين ، ويقوم بألعاب خفة مسلية . وقفت فرقة الكلاب والقردة أمام منزل السيد الغريب أيضا ، وحين ترددت أصوات الطبل والمزمار نظر غاضباً اول الأمر من خلال النافذة المعتمة بفعل الزمن ، لكنه أصبح طيبا بعد ذلك ، ومد رأسه منها ، لدهشة الجميع ،

(١) انسان الغاب هو ضرب من القردة العليا الشبيهة بالانسان ، يقطن في بورنيو وسومطرة (المعرب) .

وراح يضحك من أعماق روحه على ألعاب إنسان الغاب ، حتى أنه دفع لقاء هذه التسلية قطعة نقود فضية كبيرة ، جعلت المدينة تتندر بها طويلا فيما بعد .

انطلقت فرقة الحيوانات صباحاً مبتعدة عن المدينة ، وقد حمل الجمل العديد من السلال التي جلست الكلاب والقـردة فيها على نحو مـريح . أما القادة والقرد الكبير فساروا خلفه . بعد مضي بضع ساعات على خروجهم من بوابة المدينة ارسل الغريب الى محطة البريد ، لدهشـة ناظرها ، طالباً منه عربة وجياداً على عجل ، ثم خرج من البوابة سالكاً الطريق نفسها التي سارت الوحوش عليها . اما سكان المدينة فكانوا متكدرين جداً ، لأن أحداً منهم لم يدر الى أين ذهب .

كانت السماء مظلمة حين إقترب الغريب من بوابةالمدينة، وقد جلس قربه في العربة شخص آخر دفع القبعة على جبينه ولف اذنيه وفمه بشال حريري . ظن الكاتب في مخفر بوابة المدينة أن من واجبه أن يتحدث الى الغريب الجديد ، ويطلب منه جواز سفره . لكن هذا الاخير رد عليه على نحو غير لائق ، فقال شيئا ما بلغة غير مفهومة اطلاقاً .

قال الغريب للكاتب بلطف ، وهو يدس في يده بضعة نقود فضية : ـ « هذا ابن أخي ، وهو يفهم الألمانية على

نحو سيء . ها هو يشتم الآن بلهجته الأصلية بسبب من التوقف » .

أجاب الكاتب : ـ « حسنا ، بما أنه ابن أخيك فليعبر بغير جواز سفر . انه سيسكن معك على الأغلب . أليس كذلك ؟ » .

قال الغريب : ـ « طبعا ، وهو سيعيش هنا مدة طويلة نسبياً » .

لم يبق لدى الكاتب أي اعتراض آخر ، ودخل الغريب وابن أخيه المدينة . عموماً ، استاء رئيس البلدية ، ومعه المدينة كلها ، من الكاتب ، إذ كان في مقدوره ان يحفظ بضع كلمات مما قاله ابن الأخ بلغته ، وكانوا حينئذسيعرفون من أي بلد قدم هو وعمه . لكن الكاتب أكد له أنه لم يتكلم الفرنسية أو الإيطالية بل الإنكليزية على الأرجح ، لأن كلماته كانت ممطوطة نوعا ما ، وإذا لم يخطىء فان الشاب قد قال : Goddam (١). وهكذا تخلص الكاتب من المأزق وساعد الشاب في الوقت نفسه على الحصول على جنسية ، ولم يعد الحديث يدور في المدينة بعدئذ إلا حــول الإنكليزي الشــاب .

---

(١) اللعنة باللغة الانكليزية .

غير أن الإنكليزي الشاب لم يظهر أيضا في قاعة البولينغ ولا في حانة الجعة ، وكان في مقابل ذلك يقدم الغذاء لأحاديث الناس بوسيلة أخرى ، فغالباً ما كان يعلو صراخ وضوضاء مرعبين فيمنزل الغريب الهادىء جدا،وكان الناس يحتشدون أمامه رافعين رؤوسهم الى الأعلى ، الى حيث كان الإنكليزي الشاب يركض بسرعة كبيرة من غرفة الى أخرى ومن نافذة الى أخرى في ثوب رسمي أحمر وسروال أخضر ، وهيئته شعثاء ومخيفة . أما عمه فكان يتبعه في رداء منزلي أحمر ويحمل سوطا ، وكان غالبا ما يخطئه ، لكن بدا للفضوليين المجتمعين أمام المنزل أنه أصاب الفتى مرات عدة ، وسمعوا أنين شكواه وخوفه وفرقعة السوط . تأثرت سيدات مدينتنا جداً بالمعاملة القاسية التي يلقاها الشاب ، فطلبن في نهاية الأمر من رئيس البلدية أن يتدخل . ارسل رئيس البلدية رسالة للسيد الغريب شجب فيها بعبارات حادة جداً معاملته القاسية لابن أخيه ، وهدده بأنه سيشمل الشاب بحمايته إذا لم يكف عن هذا التصرف لاحقا .

لكن كم كانت دهشة رئيس البلدية كبيرة حين ظهر السيد الغريب في منزله أول مرة منذ عشر سنوات ، وبرر سلوكه بواجبات خاصة ألقاها على عاتقه والدا الشاب ، اللذان أوكلا اليه تربيته ، وأكد له أن الصبي ذكي ولبيب عموما لكنه يعاني من صعوبة كبيرة في تلقي اللغات ، وهو

يريد من كل قلبه أن يعلم ابن أخيه التحدث بالالمانية بطلاقة كي يقدمه بشجاعة الى مجتمع المدينة فيما بعد . غير أنه يتعلمها بعناء كبير ، ولا تبقى غالبا اية وسيلة سوى جلده على النحو المناسب . بدا رئيس البلدية راضياً كل الرضى عن هذا الشرح ، وحكى مساء في الحانة انه نادرا ما التقى بانسان متعلم ولبق كالغريب ، واضاف قائلا :

ـ « المؤسف أنه قليلا مـا يظهر في المجتمع ، لكنني أفترض انه سيزورني كثيراً في أيام الاستقبال ما إن يتعلم ابن أخيه التكلم بالالمانية قليلا » .

كان ذلك كافياً كي يغير المجتمع رأيه جذريا . صار الناس الآن يذكرون الغريب على أنه انسان لبق ويسعى الى معرفتهم عن قرب . ويعتبرون طبيعياً تماماً أن يصدر الصراخ المخيف من البيت المهجور من وقت الى آخر ، فكانوا يقولون : ـ « إنه يدرس ابن أخيه اللغة الالمانية » ، ويمضون في طريقهم . بدا في نهاية الشهر الثالث أن تعليم اللغة الالمانية قد انتهى ، وأن العم قد بدأ المرحلة التالية . عاش في المدينة مسن فرنسي واهن ، كـان يعلم الشبان الرقص ، فدعاه الغريب وعرض عليه أن يدرس ابن أخيه الرقص ، وألمح له الى أن هذا الأخير يرقص رقصاً جامحاً ، على الرغم من أنه متفهم جداً ، وقد تلقى دروساً من معلم رقص آخر ، ودربه هذا على قفزات خطرة لا يليق به أن يؤديها في المجتمع ،

ولهذا السبب فإن ابن أخيه يظن نفسه راقصا ماهراً مع أن ليس في رقصاته ما يشبه ، ولو من بعيد ، الفالس (١) أو الغالوب (٢) (هاتان الرقصتان شائعتان في موطننا يا سيدي) . ليس ثمة أي شبه حتى بالإكوسيز (٣) أو الرقصة الفرنسية . عموماً ، وعد الغريب معلم الرقص بأن يدفع له تاليراً واحداً لقاء الحصة التعليمية ، فوافق المعلم فرحا ، وأخذ على عاتقه تدريب الفتى المزاجي .

أكد الفرنسي سراً فيما بعد أنه لم ير أي شيء أغرب من دروس الرقص تلك ، فقد كان ابن أخ الغريب شاباً طويلاً ومتسق الجسم ، ولم يعبه شيء سوى قِصَرُ رجليه قليلاً . كان يظهر في الدروس مجعدا ومرتديا ثوباً أحمر وسروالاً واسعاً أخضر وقفازين أبيضين من جلد الجدي ،

---

(١) الفالس رقصة ثنائية انتشرت كثيراً في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وأبدت تأثيراً كبيراً على الحفلات . قياسها الموسيقي ٤ / ٣ ، وإيقاعها ينتقل من المعتدل الى السريع .

(٢) الغالوب رقصة ثنائية انتشرت كثيراً في أوروبا في القرن التاسع عشر ، تنفذ على نحو حثيث ودينامي . أما طبيعة الحركة فهي عبارة عن قفزات . قياسها الموسيقي ٤ / ٢ .

(٣) الإكوسيز رقصة شعبية اسكوتلندية قديمة ، انتشرت منذ القرن السابع عشر على هيئة رقصة ثنائية تتبادل الأزواج فيها الأمكنة دائما مكونين تشكيلات معقدة موضوعة مسبقا . تتسم بالحيوية . قياسها الموسيقي ٤ / ٣ ثم ٤ / ٢ .

ويتحدث قليلاً بلكنه أجنبية ، فيتسم أول الأمر بحسن الخلق والفهم العميق ، لكنه يبدأ يصعر خده فجاءة ويقفز ويدور سريعاً ، ثم يقفز عالياً ويصالب قدميه مرات عديدة قبل أن يلمس الأرض ، الى أن يبدأ رأس المعلم يدور ، وحين كان يحاول تهدئته كان يخلع خفيه الفاخرين ويرميهما نحو رأسه مباشرة ، ويشرع يقفز على أربع في الغرفة ، فيهرع عمه المسن على صوت الضجيج من غرفة نومه في رداء منزلي أحمر وواسع ، وعلى رأسه قلنسوة ذهبية من القطن ، ويلسع ظهر ابن أخيه بالسوط على نحو غير لطيف جداً ، فيطلق الشاب عواءً عالياً ويتسلق الطاولات والخزائن ، وحتى إطارات النوافذ ، وهو يتحدث بلغة غريبة غير مفهومة أبداً . لكن المسن في الثوب الأحمر المنزلي لم يكن يستسلم ، فيسحبه من رجله ويضربه بكل ما أوتي من قوة ، ويشد بالإبزيم الشال على رقبته . بعدئذ كان إبن أخيه يهدأ ويصير حسن الخلق ومطيعاً ، ويستمر درس الرقص بغير منغصات جديدة .

حين رفع معلم الرقص من مستوى تلميذه الى حد أصبح ممكنا عنده دعوة موسيقي الى دروس الرقص بدا كما لو أن ابن الأخ قد ولد من جديد ، فاستأجروا عازف كمان من فرقة المدينة الموسيقية وأجلسوه الى المنضدة . كان معلم الرقص يمثل دور السيدة ، فيلبسه العم لهذا

الفرض تنورة حريرية وشالا هنديا ، ثم يدعوه ابن الأخ ويرقص معه رقصة الفالس . كان الشاب راقصا متحمسا لا يكل ، ولم يكن يفلت معلمه من يديه الطويلتين مهما تأوه هذا الأخير وصرخ ، فيضطر الى الرقص حتى يقع أو حتى ترفض يد الموسيقي جر القرس . كادت هذه الدروس تقود المعلم الى القبر ، الكن التالير الذي يتقاضاه كل مرة بانتظام ، والنبيذ الجيد الذي يقدمه الغريب له ، فعلا فعلهما ، وكـان يحضر الدرس التالي على الرغم من أنه يكون قد أقسم عشيته على أن لايتخطى بعد الآن عتبة المنزل المهجور .

لكن سكان غريونفيزل نظروا إلى هذا الأمر على نحـو يختلف عن نظرة الفرنسي ، واعتبروا أن لدى الشاب معطيات كثيرة تؤهله لنمط الحياة الدنيوي . اما السيدات فكن يشعرن بنقص حاد في المرافقين في الرقصات ، لذلك أفرحهن أنهن سيحصلن حتى فصل الشتاء على مثل هذا الراقص البارع .

مرة صباحا أخبرت الخادمات أسيادهن ، بعد عودتهن من السـوق ، بحدث غـير عادي . كانت عربـة فخمـة تقف أمـام المنزل المهجـور تزينهـا المرايـا وشـدت إليها الخيـول ، وقد أمسك ببابهـا حوذي في زي فخم . فتح باب المنزل المهجور وخرج منه سيدان أنيقان ، أحدهما هـو المسن الغريب والآخر على الأرجح هو الشـاب الراقـص المتحمس ، والذي تعلم الألمانية بصعوبة ، ثم جلس الإثنان في

العربة وقفز الحوذي إلى مكانه ، و ـ تخيلوا ـ انطلقت العربة إلى منزل رئيس البلدية .

نزعت السيدات ، اذ سمعن حديث خادماتهن ، مآزر المطبخ والقلنسوات ، التي لا تمتاز بالنظافة التامة ، ورتبن انفسهن على أفضل وجه ، وقلن لأفراد أسرهن الذين كانوا منشغلين بترتيب غرفة الضيوف ، ويقومون في الوقت نفسه بأعمال أخرى :

ـ « واضح تماما أن الغريب قرر إخراج إبن أخيه إلى النور . إن هذا المسن الأحمق لم يفكر مرة واحدة خلال عشر سنوات بالمجيء الينا . لكن ، كما يقال ، يمكن غفران هذا له كرمى لابن أخيه الشاب ذي السحر العظيم » .

هكذا قلن ، وأخذن يوجهن ابناءهن وبناتهن كي يظهروا أمام الغريب وقورين ، ويلتزموا الإستقامة ولا يستخدموا سوى الأحاديث المؤدبة أكثر مما اعتادوا . لقد حزر أذكياء المدينة ، فقد زار العم وابن أخيه الجميع كل بدوره ، ساعيين إلى نيل رضى كل أسرة بمفردها .

دارت الأحاديث في كل مكان حولهما ، وأسف الجميع لأنهم لم يتشرفوا بهذه المعرفة الممتعة من قبل . حافظ المسن على وقاره ، وكان يبتسم بذكاء وهو يتحدث ، فكان من غير

الممكن أن يجزم المرء بثقة إن كان جادا أم لا . لقد تكلم على الطقس وعلى منطقتنا وعلى متعة الحانة على الجبل صيفا ، وكان حديثه ذكياً ومنمقاً إلى حد جعل سكان غريونفيزل مسحورين به. أما ابن أخيه فحدث ولا حرج. لقد فتن الجميع وحاز على قلوبهم . صحيح أن وجهه لم يكن وسيماً ، فذقنه وفكه السفلي خصوصاً كانا بارزين إلى الأمام ولون بشرته شديد السمرة ، وكان غالبا ما يعوج وجهه على نحو مضحك جداً ويغمض عينيه ويكشر عن أسنانه ، إلا أن الآراء اتفقت على أن ملامح وجهه كانت فريدة وممتعة . كان من الصعب على أي فرد أن يتخيل جسما أكثر حيوية وخفة . صحيح أن البزة كانت عليه غريبة نوعاً ما إلا أنها كانت مناسبة له على نحو رائع : كان يجري في الغرفة بحيوية خارقة ، ويجلس على الأريكة وعلى المقعد تارة أخرى ماداً ساقيه ، وكان مايعتبره الآخرون من شاب آخر إخلالاً بالآداب العامة وقدراً كبيراً من سوء التصرف عبقرية في حالنا هذه ، ويقول المحيطون به : ــ « إنه إنكليزي ، وهم جميعهم هكذا. في مقدور الإنكليزي أن يستلقي على الأريكة ويغفو بحضور عشر سيدات لا يعرفن أين يجلسن ، فيضطررن إلى الوقوف حوله . لا يجوز الغضب من الإنكليزي على مثل هذا التصرف » . غير أنه كان يطيع عمه بغير اعتراض ، ويكفي هذا الأخير أن يلقي عليه نظرة صارمة كي يعيده إلى رشده حين كان ينطلق قافزاً في الغرفة او يمد ساقيه على الطاولة . وهذا ما كان

يحب فعله كثيراً ، ثم كيف يمكن الغضب منه إذا كان عمه يقول لربة كل منزل يزورانه : « ـ مازال ابن أخي برياً بعض الشيء وغير مهذب ، وأنا آمل كثيراً في أن يصقله المجتمع ويعلمه كما ينبغي ، وإنني ألح خصوصاً على أن تتحملوا انتم تحديداً عناء ذلك » .

وهكذا خرج ابن الأخ إلى النور ، ودار الحديث ذلك اليوم والأيام التي تلته في مدينة غريونفيزل حول هذا فقط. لكن العم لم يقف عند ذلك ، وبدا أنه قد بدل نمط أفكاره وحياته الماضية تماماً ، فكان يذهب بعد الظهر وابن أخيه إلى الحانة القائمة على الجبل ، حيث علية المدينة تتناول الجعة وتتسلى بلعب البولينغ ، ويلعب ابن أخيه على نحو ماهر جداً . لم يكن يسقط أبداً في الضربة الواحدة أقل من خمسة أوتاد أو ستة ، لكنه كان يبدو من وقت الى آخر وكأن شيئا قد استحوذ عليه ، فينطلق خلف الكرة فجاءة بغير أية مقدمات ويحدث خراباً حقيقياً وسط الأوتاد ، أو يقف على رأسه حين يسقط الملك غير عابىء بتسريحته المجعدة الجميلة ، ويهز رجليه في الهواء ، وفي مرات أخرى يكاد المرء لا يلتفت حتى يراه جالساً على سطح عربة مارة قريباً وينظر متباهياً حتى تقطع مسافة ما ثم يقفز ويعود إلى مكانه .

كان العم كل مرة يقوم فيها ابن اخيه بهذه العروض يعتذر صادقاً أمام رئيس البلدية وغيره عن مشاكسات الشاب.

أما هم فكانوا يضحكون ناسبين هـذا كله الـى أنه شاب ، ويؤكدون له أنهم كانوا أنفسـهم يمتازون في مثل سنه بالخفة عينها ، وأنهم أحبوا « الشـاب الطائش » كما كانوا يسمونه .

حدث غير مرة أنهم غضبوا منه غضباً شديداً ، بيـد أنهم لم يحزموا أمرهم على التعبير عن عدم رضـاهم ، لأن الإنكليزي الشاب اشتهر بهيئة الشـاب واسـع الاطـلاع والذكي . كان المسن وابن أخيه يذهبان مساء الى الفندق المحلي « الأيل الذهبي » أيضاً ، وعلى الرغم من أن ابن الأخ كان لا يزال فتياً جداً بعد إلا انه كان يتخذ هيئة رجل مسن ، فيجلس الى الطاولة واضعاً نظارات غريبة جـداً ، ويخرج غليوناً طويلاً ويبدأ يعب الدخان وينفثه اكثف من الجميع . أما حين يدور الحديث على ما تكتبه الصـحف عن الحرب والسلام ، ويبدي الطبيب رأيـاً ، ثم رئيس البلدية رأيـاً آخر ، فيذهل الآخرون لمعارفهما السياسية العميقة ، كان من الطبيعي جداً أن يخطر في بال ابن الأخ التعبير عن رأي معارض تماماً بأن يضرب الطاولة بيده ، التي لم يخرجها من القفاز أبداً ، مبدياً للطبيب ورئيس البلدية على نحو لا يحتمل الجدل أنهما لا يفقهان شـيئاً ، وانه سـمع أخباراً مغايرة تماماً ، وانه يفهم هذه الأمور أفضل منهما كثيراً . بعد ذلك كان يعبر بلغة ألمانية محطمة وغريبة عن رأيه ، الذي كـان الجميع ، لاسف رئيس البلدية العظيم ، يعترف بصـحته

التامة ، لأن صاحبه إنكليزي ، وكيف له أن لا يعرف أفضل من الآخرين كثيراً .

حين كان رئيس البلدية والطبيب يجلسان بعد ذلك مغتاظين من غير أن يحزما أمريهما على التعبير جهاراً عن عدم رضاهما ، ليلعبا جولة في الشطرنج ، كان ابن الأخ يقترب منهما وينظر من خلال نظارتيه الكبيرتين من فوق كتف رئيس البلدية ، وينتقد هذه النقلة أو تلك ويقول للطبيب إن عليه أن يلعب على هذا النحو أو ذاك ، فيعتري اللاعبان غضب شديد ، وحين كان رئيس البلدية يقترح عليه متمتماً أن يلعب معه جولة كي يعلن له « المات » وفاقاً لقواعد اللعبة جميعها ، لأنه يعتبر نفسه فيليدور الثاني[1] ، كان العم يشد الشال على عنق ابن أخيه ليصبح بعد ذلك مطيعاً ومنصاعاً ويغلب رئيس البلدية .

إلى ذلك الوقت لم يكن سكان غريونفيزل يتسلون كل مساء بلعب الورق لقاء نصف كريتسر في الجولة ، غير أن ابن الأخ اعتبر هذا الرهان تافهاً ، وصار يضع الكرمنينتاليرات والدوقيات ، مؤكداً أن أحداً لا يلعب مثله بمهارة . لكنه كان يخسر عادة بعد ذلك أموالاً لا تصدق ، فيرضى عنه شركاؤه ، الذين كانوا مغتاظين منه من قبل ؛

---

(1) — فيليدور (١٧٢٦ — ١٧٩٥) موسيقي فرنسي ولاعب شطرنج .

وكانوا لا يخجلون أبداً حين ينتزعون منه هـذا القدر مـن النقـود ، ويقولون وهـم يضعون الدوقيات في جيوبهـم : « إنه إنكليزي ، وهذا معناه انه غني منذ ولادته » .

وهكذا سرعان ما صار ابن أخ السـيد الغريب يحظى باحترام فائق في المدينة والمنطقة كلها ، ولم يذكر السـكان القدماء أنهم رأوا شاباً مثيلاً له مرة واحدة في غريونفيزل . لقد كان ظاهرة فريدة في هذه الدنيا . ليس في مقدورنا أن نقول إن ابن الأخ كان قد تعلم شيئاً غـير الرقص ، فكانت اللاتينية واليونانية له كقواعد اللغة الصينية كما يقـال ، ومرة اضطر في أثناء لعبة ما في منزل رئيس البلديـة الى أن يكتب بضع كلمات فتبين للحضور أنه لا يتقن حتى كتابـة اسمه ، وكان يرتكب في الجغرافيا اخطـاء مدهشـة ، فلا يساوي عنده شيئاً نقل مدينة المانية الى فرنسا او مدينـة دانماركية الى بولونيا . إنه الم يقرأ شيئاً ولم يتعلم شيئاً ، وغالباً ما كان الأسقف يهز رأسه ساهماً ، حسرة على جهل الشاب . وعلى الرغم من ذلك كله كان السكان يجدون كل ما يفعله ويقوله رائعاً . اما هو فكان وقحاً الى حد كان يعتبر نفسه محقاً وينهي أحاديثه جميعها بالكلمات التالية : ــ « انا أعرف هذا أفضل » .

اقترب الشتاء ، وهنا راح نجم ابن الأخ يسطع أكثـر فأكثر ، وكانت كل جماعة تخلو منـه تعتبر مملة ، وكـان

الناس يتثاءبون إذا عبّر رجل ذكي عن رايه . أما إذا تفوه ابن الأخ بسخافات لا تعقل وبلغة ألمانية سيئة فكانت آذانهم تشرئب . لقد وضح الآن أن هذا الشاب كامل في جميع المجالات ، وهو شاعر أيضاً ؛ وقلّ أن تمضي أمسية من غير أن يسحب من جيبه ورقة ويقرأ للمجتمع سونيت(1) . صحيح أن عدداً من الناس قد أكدوا أن أشعاره سيئة وبغير معنى وآخرون قد قرأوا هذه الأشعار منشورة في مكان ما ، إلا أن ابن الأخ لم يكن يضطرب ويتابع الإنشاد ، ثم يشرع يدل الرأي العام على جمال أشعاره فينال كل مرة نجاحاً مصحوباً بالضجيج .

لكن نصره الحقيقي كان في حفلات غريونفيزل ، إذ كان لا يعرف للتعب من الرقص معنى ، ولم يرقص أحد بسرعة كما يفعل هو ، ولم يكن في مقدور أحد أن يقفز في الهواء قفزات رشيقة وخطرة غير عادية مثله . كان عمه يلبسه في أثناء ذلك ثياباً أنيقة جداً وعلى أحدث طراز دائماً . وعلى الرغم من أن البزة لم تكن مناسبة له تماماً فان الجميع كانوا يرون ثيابه رائعة ولائقة جداً . غير أن الشبان كانوا على شيء من الاستياء من النظام الجديد الذي أدخله . فقبلاً كان رئيس البلدية نفسه يفتتح الحفل ثم يمنح حق التصرف

---

(1) سونيت قصيدة من اربعة عشر بيتاً . (المعرب)

بالرقصات للشبان من أفضل العائلات ، لكن كل شيء تغير مع ظهور هذا الشاب الغريب ، فراح يمسك بغير طول كلام بيد أية سيدة تصادفه ، ويقف معها في أول الصف ويفعل كل ما يحلو له ، فيصير سيد الحفل وملكه والمتصرف فيه. كانت السيدات ترين هذا السلوك فريداً وممتعاً . أما الرجال فلم يجرؤوا على المعارضة ، ليبقى ابن الأخ في المقام الذي وضع نفسه فيه .

بدا أن الحفلات تدخل متعة خاصة الى روح العم ، فكان لا يحيد بنظره عن ابن أخيه ويضحك طوال الوقت ضحكاً خافتاً ، وحين كان الضيوف يسرعون نحوه ويغمرونه بمديح الشاب اللبق حسن التهذيب لم يكن في مقدوره تمالك نفسه فرحاً ، فينفجر ضاحكاً ضحكاً مرحاً كالمجنون. ارجع سكان غريونفيزل تجليات الفرح العاصفة هذه الى حبه الكبير لابن أخيه ، ورأوا فيها أمراً عادياً تماماً . لكن العم كان يلجأ من وقت الى آخر الى أسلوب الإرشاد الأبوي ، ففي أثناء الرقص كان في مقدور الشاب أن يصل بغير مقدمات، وبقفزة واحدة ، الى الرصيف ، الى حيث تجلس فرقة المدينة الموسيقية ، فينتزع آلة الكونترباص من يد قائد الفرقة ويعزف عليها على نحو حثيث ، أو أن ينقلب فجأة ويرقص على يديه ويهز رجليه في الهواء . حينئذ كان العم يدفعه

عادة جانباً ويزجره بصرامة، ثم يشد الشال على عنقه فيصير ابن الأخ هادئاً وناعماً كالحرير .

هكذا كان سلوك ابن الأخ في المجتمع وفي الحفلات . لكن ، وكما يحدث عادة ، فإن العادات السيئة تضرب جذورها أسرع كثيراً من الجيدة ، ويجد الشبان ، الذين لم يمعنوا الفكر بعد في انفسهم وفي الحياة ، شيئاً ما يجذبهم الى المودة الجديدة والفريدة دائماً مهما كانت سخيفة . هذا ما جرى في غريونفيزل ، فحين رأى الشبان في المدينة أن أحداً لم ينهر ابن أخ الغريب ، بل راح المجتمع يسمي سلوكه الأخرق وضحكه غير اللبق وثرثرته وردوده الفظة على الكبار عبقرية ، قرروا : ـ « ليس صعباً أن يصبح المرء شاباً طائشاً عبقرياً » . لقد كانوا من قبل شباناً مثابرين وأذكياء أما الآن فصاروا يفكرون : « ما الحاجة الى العلم حين تمنحنا الجلافة أكثر ؟ » . ورموا الكتب جانباً وصاروا يتسكعون في الطرقات والساحات . كانوا سابقاً لبقين ولطيفين مع الجميع ، فينتظرون حتى يسألونهم ثم يردون بأجوبة محتشمة ومتواضعة ، لكنهم صاروا والكبار الآن في منزلة واحدة ، يثرثرون معهم ويعبرون عن آرائهم ويضحكون في وجه رئيس البلدية حين يقول شيئاً ما ، ويؤكدون أنهم يعرفون كل شيء أفضل من الجميع .

سابقاً لم يكن شبان غريونفيزل يطيقون الفظاظة وقضاء الوقت بغير معنى . أما الآن فراحوا يغنون الأغاني المشاكسة ويدخنون الغلايين الكبيرة ويتسكعون في المطاعم . كما اشتروا نظارات كبيرة، على الرغم من أن نظرهم كان ممتازاً، وعلقوها على أنوفهم واعتبروا أنهم كباراً لأنهم يشبهون ابن الأخ المدوح . صاروا يستلقون في منازلهم والمنازل الأخرى على الأرائك بأحذيتهم ومهاميزهم ، ويتأرجحون على الكراسي في المجتمعات الجيدة ، أو يضعون مرافقهم على المائدة مسندين رؤوسهم على قبضاتهم ، فكان ذلك يبدو لوحة ممتعة جداً ، وعبثاً بينت أمهاتهم وأصدقاؤهم لهم كم هذا السلوك غبي وغير لائق ، لأنهم كانوا يرجعون هذا السلوك الى مثال ابن الأخ الرائع ، وعبثاً برهن الأولياء أنهم مضطرون الى غفران شيء من الفظاظة لابن أخ الغريب لأنه إنكليزي وأمته تتسم بهذه الصفة ، إذ كان شبان غريونفيزل يؤكدون أنهم يملكون الحق ، على نحو لا يقل عن أي إنكليزي، في أن يكونوا غير مهذبين على الطريقة العبقرية نفسها . اختصاراً ، كان النظر الى الأخلاق والعادات الطيبة وهي تختفي تحت تأثير القدوة السيئة يدعو إلى الشفقة .

بيد أن الشبان لم يفرحوا طويلاً بحياة الفظاظة واللا مبالاة هذه ، لأن الحدث اللاحق غيّر كل شيء . كان على تسليات الشتاء أن تنتهي بحفل موسيقي كبير تقوم

بجزء منه فرقة المدينة الموسيقية ويقوم بالجزء الآخر محبو الموسيقى المهرة من سكان غريونفيزل ، فكان رئيس البلدية يعزف على نحو رائع على الفيولونشيل (١) ، والطبيب على المزمار المزدوج ، أما الصيدلي ، وعلى الرغم من أنه لم يكن يتمتع بموهبة حقيقية ، فقد كان يعزف على المزمار الافرنجي . كما تعلمت بعض حسناوات غريونفيزل الغناء المنفرد . اختصارا كانت فقرات الحفل غنية ، لكن حفلا كهذا الحفل برأي الغريب ، وعلى الرغم من أنه رائع ، إلا أنه خالٍ من الثنائيات ، وكل حفل لائق يجب أن تكون فيه ثنائيات . أصابت هذه الكلمات الناس بشيء من الارتباك . صحيح أن ابنة رئيس البلدية تغني مثل البلبل ، لكن أين سيجدون لها مرافقاً كي يغني معها الثنائية ؟ أخيراً تذكروا عازف الأورغ المسن ، الذي كان يغني طبقة الباص على نحو رائع في زمنه ، لكن الغريب أكد لهم أن عناءهم هذا بغير فائدة ، فابن أخيه يغني غناءاً فريداً . ذهل الجميع لموهبة الشاب المكتشفة حديثاً ، واضطر هذا الأخير الى أن يغني شيئاً ما على سبيل الاختبار فقط ، وإذا لم نعر الانتباه الى بضع أمور غريبة ، اعتبرها الناس إنكليزية ، فإنه قد غنى كالملاك . وهكذا فقد تدرب الشاب وابنة رئيس البلدية

---

(١) الفيولونشيل أو الفيولا هو الكمان الجهير (المعرب) .

على الثنائية ، واقترب أخيراً موعد الحفل ، واستعد سكان غريونفيزل لإطراب أسماعهم فيه .

يا للأسف ، مرض العم ، ولم يستطع الحضور لمشاهدةنصر ابن أخيه الجديد ، لكنه أبلغ رئيس البلدية ، الذي زاره قبل موعد الحفل بساعة ، بضع تعليمات تخص ربيبه ، فقال :

« ــ إن لابن أخي روحاً طيبة ، لكن أفكاراً غريبة تراود راسه من وقت الى آخر ، فيسلك حينئذ سلوكا غير مفهوم . لهذا السبب تحديداً أنا آسف لأنني لا أستطيع الحضور الى الحفل الموسيقي ، فهو يرهبني وهو يعلم لماذا . عليّ أن أقول إن بلاءه هذا ليس روحيا بل جسماني على الارجح وهو من صفات طبيعته . لذلك أرجو منك أيها السيد رئيس البلدية ، إذا ما خطر في باله أن يجلس على حامل النوتات أو أن يمرر القوس على الكونترباص مهما كلفه الأمر ، أو أي شيء من هذا القبيل ، أن تحل الشال على عنقه قليلاً ، وإذا لم ينفع ذلك فأرجو أن تنزعه عنه نهائيا ، وسترى كيف سيصير طيعاً وهادئاً فورا » .

شكر رئيس البلدية المريض على الثقة التي أولاه اياها ، ووعده بأن ينفذ ما أوصاه به إذا تطلب الأمر ذلك .

كانت القاعة مليئة عن آخرها ، ولم يحضر الحفل سكان غريونفيزل فقط ، بل جاء الضيوف من المناطق المجاورة كلها ، وكان منهم الصيادون والأساقفة والموظفون وملاك الأراضي ، وغيرهم كثير ممن كانوا يسكنون على بعد ثلاث ساعات من السفر ، وقد اصطحبوا أفراد أسرهم وخدمهم كي يشاركوا أهل غريونفيزل متعتهم . لم يمرغ موسيقيو الفرقة الموسيقية وجه المدينة بالوحل ، ثم قدم بعدهم مباشرة رئيس البلدية فقرته ، فعزف مقطوعة على الفيولونشيل ، رافقه فيها الصيدلاني الذي عزف على المزمار الافرنجي . غنى بعدهما عازف الأورغ بنجاح كبير غناء منفرداً ، كذلك صفق الحاضرون كثيراً للطبيب الذي عزف على المزمار المزدوج .

انتهى الفصل الأول ، وانتظر الجميع بصبر فارغ الفصل الثاني ، الذي سيغني فيه الشاب الغريب وابنة رئيس البلدية ثنائيتهما . ظهر ابن الأخ في بزة أنيقة ، وكان قد لفت أنظار الحاضرين منذ زمن طويل ، فاستلقى بغير طول تفكير على اريكة رائعة مخصصة لدوقة كانت تعيش في الجوار ، ومد ساقيه وراح ينظر الى الحضور بمنظار كبير جداً ، إذ لم يمتعه النظر إليهم بنظارتيه الكبيرتين . كما اصطحب معه أيضاً كلباً ضخماً على الرغم من ان اصطحاب الكلاب الى القاعة كان ممنوعاً . دخلت الدوقة ،

التي خصص المكان لها ، القاعة ، لكن ابن الأخ لم يفكر أبداً بالوقوف والتخلي عن المكان لها ، بل على العكس من ذلك فقد استوى على نحو مريح أكثر ، ولم يحزم أحد أمره على أن يوجه له ملاحظة بهذا الشأن . أما السيدة المرموقة فاضطرت الى أن تجلس على كرسي عادي من القش وسط النساء الأخريات من مدينتنا ، ويقال إنها كانت غير راضية عن ذلك أبداً .

في أثناء عزف رئيس البلدية الممتاز ، وفي أثناء غناء عازف الأورغ المنفرد الرائع ، وحتى في أثناء المقطوعة الجميلة التي عزفها الطبيب على المزمار المزدوج ، وحين كان الآخرون يكتمون أنفاسهم ، كان ابن الأخ يأمر كلبه بأن يحضر له مناديل الأنف أو يثرثر بصوت عال مع جيرانه ، فأذهل سلوكه هذا من لم يعرفه سابقاً .

لهذا لم يكن مدهشا أن ينتظر الجميع والفضول يملأ صدورهم الثنائية التي سيؤديها . بدأ الفصل الثاني ، وعزف موسيقيو فرقة المدينة مقطوعة غير كبيرة . ثم اقترب رئيس البلدية ترافقه ابنته من الشاب وسلمه النوتات ، وقال :

ـ « هلا تفضلت ياسيدي لتؤدي الثنائية ؟ » .

قهقه الشاب وكشر عن أنيابه ، وقفز وتبعهما نحو حمالة النوتات . أما الحاضرون فتسمروا في أمكنتهم منتظرين ما سيجري . الاح قائد الفرقة بعصاه ، وأشار برأسه لابن الأخ كي يبدأ . لكن هذا الأخير نظر من خلال نظارتيه الكبيرتين الى النوتة وأطلق أصواتا منفرة وبشعة ، فصاح به قائد الفرقة .

ــ « درجتان الى الأسفل أيها المحترم . دو ، عليك أن تبدأ بالدو » .

وعوضا عن أن يبدأ الشاب بالدو نزع فردة حذائه من إحدى قدميه ، وقذف بها رأس قائد الفرقة وتصاعدت غيمة من الغبار . فكر رئيس البلدية لما رأى ذلك : « آه ، هاهي نزوات طبيعته الجسمانية تستحوذ عليه مرة أخرى » . وقفز وامسك به من رقبته ، وحل الشال على عنقه قليلاً ، لكن حال الشاب صارت أسوأ من ذي قبل، وراح يقفز ويتكلم لا بالألمانية بل بلغة غريبة لم يفهمها أحد . أصيب رئيس البلدية باليأس من هذا الحادث المؤسف ، وفكر في أن شيئا ما غريبا يحدث للشاب ، فقرر أن ينزع عن عنقه الشال . لكنه لم يكد يفعل ذلك حتى تحجر رعبا . كان عنق الشاب مغطى بصوف بني غامق عوضا عن الجلد الانساني ذي اللون العادي . أما الشاب فأخذ يقفز أعلى وأطلق قفازيه من جلد الجدي في شعره وشده ، و . . . أوه ، يا للمعجزة . كان

شعره الجميل مستعاراً ، ورماه في وجه رئيس البلدية . لقد صار رأسه الآن في هيئة جديدة ، فهو مغطى بالصوف البني ذاته الذي يغطي عنقه .

راح يقفز على الطاولات والمقاعد ، ورمى حامل النوتات وحطم الكمانات والمزامير وسلك سلوك المجنون .

صرخ رئيس البلدية وقد طاش صوابه : « ـ أمسكه ، أمسكه . لقد جن . أمسكه » .

لكن ذلك لم يكن سهلاً ، فقد نزع قفازيه فظهرت مخالبه التي راح يخدش بها على نحو مؤلم . أخيراً استطاع أحد الصيادين الشجعان الإمساك به ، فضغط يديه الطويلتين، ولم يعد في مقدور الشاب إلا أن يهز رجليه ويقهقه ويصرخ بصوت أجش . احتشد الجمهور حولهما ، وراحوا ينظرون مذهولين إلى الشاب الغريب ، الذي صار الآن لا يشبه الانسان . غير أن عالماً كان يعيش في الجوار ، وكان لديه متحف لمواد تاريخ الطبيعة ومجموعة كاملة من الحيوانات المحنطة ، اقترب منه وراح يمعن النظر فيه ، ثم قال :

ـ « يا الهي . أيها السيدات ، أيها السادة ، كيف سمحتم لهذا الحيوان بالدخول الى هذا المكان المحترم ؟ انه قرد Homo Troglodytes Linnaei . دعوه لي وسأدفع لكم حالاً ستة تاليرات . سأسلخ جلده واحنطه لأكمل مجموعتي » .

من في مقدوره أن يصف دهشة سكان غريونفيرل حين سمعوا هذه الكلمات ؟

هتف الجميع : « ــ كيف ؟ قرد ، إنسان غاب في مجتمعنا ؟ أيعقل أن الشاب الغريب هو قرد لا أكثر ولا أقل؟ » .

راح بعضهم ينظر الى بعض ، وقد شلت الدهشة تفكيرهم . لم يقدروا على فهم ماجرى . لم يقدروا على تصديق عيونهم . راح الرجال يتفحصونه بدقة ، لكنه ظل قرداً عادياً كما كان .

هتفت زوج رئيس البلدية : « ــ لكن كيف يمكن هذا ؟ كان يقرأ الشعر كثيرا ، وتناول طعام الغداء عندي أكثر من مرة كغيره من الناس » .

هتفت زوج الطبيب : « ــ ماذا ؟ كيف هذا ؟ لقد كان يحتسي القهوة عندي ويتحدث أحاديث علمية مع زوجي ويدخن معه » .

تدخل الرجال قائلين : « ــ كيف ؟ هل هذا ممكن ؟ كان يرمي الكرات معنا في صالة البولينغ ويناقش السياسة كرجل مثلنا » .

اشتكى الجميع : « ــ كيف هذا ؟ كان يقود الرقصات في حفلاتنا . قرد ، قرد ؟. هذه معجزة هذا سحر » .

قال رئيس البلدية وهو يشير إلى شال ابن الأخ ، أو القرد إذا شئتم :

ـ « نعم إنه سحر ووسوسة شيطان . أنظروا إلى هذا الشال الذي سحرنا به . لقد حيكت عليه شريحة واسعة من الورق المطاطي كتبت عليها رموز غريبة . أظن أنها باللاتينية. هل يستطيع أحدكم قراءتها ؟ » .

كان القس عالما ، وقدر له أن يخسر أكثر من جولة في الشطرنج أمام القرد ، فنظر الى الورقة وقال :

« ـ لا ، إن الأحرف لاتينية فقط ، وقد كتب هنا :

مضحك أن يرى المرء كيف يقبل

القرد على التفاحة بحماس » .

ثم أردف قائلاً : ـ « نعم ، إن هذا خداع جهنمي وسحر من نوع خاص ، ويستحق عقاباً عظيماً » .

وافق رئيس البلدية على هذا الرأي واتجه حالا الى منزل الفريب ، الذي كان ساحراً ولا شك . أما القرد فقاده ستة من رجال الشرطة كان في نيتهم بدء التحقيق لحظة الوصول .

اقترب رئيس البلدية ورجال الشرطة من المنزل المهجور، يصحبهم جمهور لا يعد ولا يحصى من الناس ، الذين كان كل فــرد منهم يرغب في أن يعرف مــاذا سيحدث . راحوا يقرعون الباب ويرنون الجرس ، لكن بغير جدوى لأن أحداً لم يرد عليهم . حينئذ أمر رئيس البلديــة غاضبا بتحطيم الباب ، وصعدوا الى غرفة نوم العم . لكنهم لم يجدوا هناك شيئا سوى لوازم المنزل القديمة . اختفى الغريب ، ولم يبق ما يدل عليه سوى رسالة كبيرة مختومة على مكتبه ، وموجهة لرئيس البلدية ، الذي فضها حالاً وقرأ :

« أعزائي سكان غريونفيزل ،

حين ستفضون هــذه الرســالة لن أكون في مدينتــكم الصغيرة ، وستكونون على علم منذ زمن الى أي جنس ينتمي ابن أخي العزيز . اعتبروا هذه اللعبة ، التي سمحت لنفسي بلعبها معكم ، درساً جيد للمستقبل فلا تفرضوا مجتمعكم على غريب يأمل في أن يعيش معكم كما يريد هو . انا أعلم قــدري لذلك لم أشــأ أن انغمس معكم في النميمــة التي لا تنتهي ، وأن أكتسب عاداتكم الغبية وأساليبكم المضحكة في الحياة . ولهذا السبب أيضا ربيت إنسان الغاب الشاب، الذي أحببتموه جــدا ، كي ينوب عني لديكم . أتمنى لكم الصحة ، وأرجــو أن تستفيدوا مــا استطعتم من هــذا الدرس » .

خجل سكان غريونفيزل كثيرا أمام سكان المناطق المجاورة ، وكانوا يهدئون أنفسهم بأن ما حصل قد حصل بفعل قوة خارقة . الكن أكثرهم خجلاً كانوا شبان المدينة ، الذين اكتسبوا عادات حمقاء وسلكوا سلوك القرد ، فامتنعوا منذ ذلك الوقت عن وضع مرافقهم على الطاولة وعن التأرجح على الكرسي ، وصاروا يصمتون حتى يسألوهم . القد نزعوا النظارات وعادوا كما كانوا سابقا لطفاء وحسني الخلق ، وإذا حدث أن تذكر أحدهم من جديد ذلك السلوك المشين والأحمق فإن سكان غريونفيزل كانوا يقولون له : « ــ هكذا أيها القرد » . أما القرد الذي لعب طويلاً دور الشاب فقد سلموه لذلك العالم ، صاحب متحف مواد تاريخ الطبيعة ، ولا زال إنسان الغاب هذا يتنزه في فناء منزل العالم ، الذي يطعمه ويعرضه على أي زائر كحيوان فريد في نوعه .

حين انتهى العبد ضجت القاعة بالضحك ، وضحك الفتيان أيضاً مع الجميع :

« ــ يبدو أن أولئك الفرنجة أناس غريبو الأطوار ، وإذا أردتم الحقيقة فإنني أفضل العيش هنا في الاسكندرية مع الشيخ والمفتي على أن أقيم في غريونفيزل في مجتمع الأسقف ورئيس البلدية وزوجيهما الحمقاوين » .

قال التاجر الشاب : « ـ انت محق في ذلك . أنا أيضاً لا أفضل الموت في بلاد الفرنجة ، فالفرنجة قوم فظون ومتوحشون وبرابرة ، ويصعب العيش بينهم على تركي أو فارسي متعلم » .

وعدهم المسن قائلا : « ستسمعون الآن شيئاً ما عن هذا . فكما علمت من ملاحظ الرقيق فإن ذلك الشاب الوسيم سيحدثنا بالكثير على بلاد الفرنجة . لقد عاش هناك زمناً طويلاً على الرغم من أنه مسلم منذ ولادته » .

« ـ كيف ؟ هل هو ذاك الذي يجلس آخر الصف ؟ سيخطىء الشيخ إن هو أعتقه . إنه أوسم عبد في المنطقة كلها . انظروا ، أي وجه رجولي له ، وأي نظرة جريئة وأي قامة هيفاء . في مقدور الشيخ أن يأمر بألا يوكلوا اليه عملاً مضنياً . ليطرد الذباب عن الشيخ ، وليقدم له النرجيلة . إن مثل هذه الخدمات هي متعة خالصة ، ومثل هذا العبد هو زينة للمنزل حقاً . أيعقل أن الشيخ يعتقه وهو لم يمض هنا سوى ثلاثة أيام ؟ ـ هذا جنون . هذا خطأ » .

قال المسن على نحو معبّر جداً : « ـ لا تنتقد من هو أحكم الناس في مصر . لقد قلت لكم إنه يعتقه ظناً منه انه يكسب بذلك رضى الله . أنت تقول إن العبد وسيم وأهيف، وهذا صحيح . لكن ابن الشيخ ،أعاده الله الى أبيه سالما ،

كان أيضا ولداً وسيماً ، وقد نما الآن وصار على الأرجح شاباً فارعاً وأهيف ، فهل تظن ان على الشيخ أن يوفر ماله ويعتق عبداً ثمنه بخس واحنت الشيخوخة ظهره ، ويأمل مقابل ذلك في أن يعود إليه ابنه ؟ من يريد أن يصنع شيئا في هذه الدنيا فليصنعه جيداً أو لا يصنعه أبداً » .

« ـ انظروا ، إن الشيخ لا يحيد بناظريه عن هذا العبد . لقد لحظت ذلك منذ فترة . كان كثيراً ما يصوب عينيه وهو يسمع الراويين الى تلك الجهة ، ويثبت نظره على ملامح العبد ، الذي سيعتق اليوم ، النبيلة . إنه يأسف على الأرجح لأنه سيطلقه » .

قال المسن : « ـ لا تظنوا الظنون بالشيخ . أنت تفترض أنه يأسف لضياع ألف تومان في الوقت الذي يحصل كل يوم على أكثر من هذا المبلغ بثلاث مرات . ربما تقع نظراته الحزينة على العبد الشاب لأنه يذكره بابنه الذي يعاني في الغربة ، أو ربما يفكر الآن في أن إنسانا رحيما قد يظهر هناك فيشتريه ويعيده الى أبيه » .

أجاب التاجر الشاب : « ـ قد تكون محقاً يا عماه . إنني أخجل من نفسي لأنني دائماً أظن التفاهة والوضاعة في الناس، في الوقت الذي تفضل أنت أن ترى في أفعالهم النوايا

الحسنة . لكن الناس عموماً سيئون على الرغم من كل ذلك . ألم تصل الى مثل هذه القناعة أيضا ؟ » .

أجـاب المسن : « ـ إنني أرى الناس جيـدين لأنني وصلت الى هذه القناعة تحديداً . لقد حدث لي ما حدث لكم . عشت الهموم اليومية ، وسمعت الكثير من الأشياء السيئة عن الناس وعانيت بنفسي من أمور كثيرة لا تعقل ، وبدأت أعتبر الناس أشراراً . لكنني فكرت بأن الله العادل والحكيم لم يكن ليحتمل علـى الأرض جنسنا الإنسـاني الفاسق ، فشرعت أفكر بما رأيت وبما عانيت . وإلام تظنون أنني وصلت ؟ كنت أتذكر الشر فقط وأنسى الخير . أنا لم أكن ألحظ حين يفعل أحدهم فعلاً حسناً ، وكنت أعتبر من الطبيعي جداً أن تعيش أسر كاملة حياة التقى والصلاح . أما الشر وفعل السوء فكانا ينطبعان في قلبي . لكنني أنظر الآن بعينين مغـايرتين الى ما يحيط بي ، وأفرح لأن بذور الخير ليست شحيحة كما كنت أظن سابقاً ، وصرت ألحظ الشر أقل ، أو أنه لم يعد يسترعي انتباهي ، وتعلمت أن أحب الناس وأن أعتبرهم جيدين ، وفي حياتي الطويلة كان خطأي حين أذكر الناس بالخير أقل من ذاك الوقت حين كنت أظنهم بخلاء وأغبياء فاسقين » .

في أثناء ذلك قطع كلام المسن ملاحظ الرقيق ، الذي اقترب منه وقال :

« ـ سيدي ، إن شيخ الاسكندرية علي بانو قد أظهر جميل عطفه ولحظ وجودك في القاعة ، وهو يدعوك الى أن تشغل مكاناً قريباً منه » .

ظن الفتيان المسن شحاذاً ، لذلك لم تكن دهشتهم قليلة لهذا الشرف الذي هبط عليه ، وحين ابتعد كي يشغل مكانه قرب الشيخ أوقفوا ملاحظ الرقيق وسأله التاجر الشاب :

« ـ أستحلفك بالنبي أن تقول لنا من هذا المسن الذي تحدثت إليه ، والذي يكرمه شيخنا » .

هتف الملاحظ وهو يضرب كفا بكف دهشة : « ـ كيف؟ الا تعرفون من هذا الرجل ؟ » .

« ـ لا ، إننا لا نعرف من هو » .

« لكنني رأيتكم غير مرة تتحدثون إليه في الطريق ، وقد لحظ سيدي الشيخ ذلك أيضا ، وقال منذ برهة : « ـ يبدو أنهم فتيان فاضلون ما دام مثل هذا الرجل يكرمهم بمجالسته » .

هتف التاجر الشاب وقد نفذ صبره : ـ « قل لنا من هو » .

أجاب الملاحظ : ـ « حقاً إنكم تهزأون مني . لا يسمح بالدخول الى هـذا المنزل إلا بدعوة مسبقة ، وقـد سألني المسن اليوم أن أعرف من الشيخ إن كان يسمح بدعوة عدد من الشبان الى هنا ، وأمرني الشيخ بأن أسر له بأنه حـر التصرف بالمنزل » .

ـ « لا تتركنا في جهل . أقسم بحياتي انني لا أعرف من هذا الرجل . لقد التقيناه وتحدثنا إليه مصادفة » .

ـ « إذا كان الأمر كذلك ففـي مقدوركم أن تعتبروا انفسكم محظوظين ، لأنكم تحدثتم الى رجـل عالم مشهور ، وجميع الحاضرين هنا الآن يقدرونكم ويحسدونكم . إنـه مصطفى ، الدرويش العالم » .

ـ « أهو مصطفى مربي ابن شيخنا ؟ أهـو مصطفى الحكيم الذي كتب الكثير من كتب العلم ، وجاب البلـدان البعيدة وحل في أنحاء الدنيا كلها ؟ هل تحدثنا الى مصطفى؟ أهو مصطفى الذي كلمنا كما لو أننا على قدم المساواة معه ؟ وبغير أن نظهر له الاحترام الذي يستحق ؟ » .

ظل الشبان يتحدثون على ما سمعوه من حكايات وعلى المسن الذي ظهر أنه الدرويش مصطفى ، وكـان اغترارهم بأنفسهم غير قليل لأن مثل هذا المسن المشهور قد خصهم

باهتمامه وتحدث اليهم وتجادل معهم غير مرة . وهنا اقترب ملاحظ الرقيق منهم فجاءة ودعاهم ليتبعوه الى الشيخ ، الذي يرغب في الحديث إليهم . خفقت قلوب الشبان خفقاناً شديداً ، فهم لم يتحدثوا مرة واحدة الى مثل هذا الانسان المرموق ولو على انفراد ، فما ظنكم إذا كان ذلك على مرأى من حشد كبير من الناس . لكن الشبان لم يرغبوا في أن يبدوا أغبياء ، وأمسك واحدهم بيد الآخر وساروا وراء ملاحظ الرقيق . استوى الشيخ على وسادة فاخرة وراح يشرب الشراب ، في حين جلس الى يمينه على وسادة أخرى المسن في ثيابه الفقيرة مصالباً ساقيه على سجادة فارسية ثمينة ومنتعلاً خفاً بالياً . لكن رأسه الجليل ونظراته المليئة بالعزة والحكمة دلت على أن مكانه يجب أن يكون قرب انسان مثل الشيخ فعلاً .

كان الشيخ عابساً ، وبدا أن المسن كان يسعى الى أن يهدئه ويبث الحيوية فيه ، وقد رأى الشبان في دعوتهم للمثول أمام عيني الشيخ حيلة أيضاً من المسن ، الذي أمل على الأرجح في أن يطرد الحديث معهم الحزن من نفس علي بانو .

قال الشيخ : ـ « ارحب بكم أيها الشبان . أهلاً بكم في منزل علي بانو . إن صديقي القديم الجالس هنا يستحق

شكري لأنه دعاكم الى زيارتي ، لكنني غاضب قليلاً منه لأنه لم يأت بكم إليّ من قبل . من منكم الناسخ ؟ » .

قال الناسخ الشاب مصالباً يديه على صدره وهو ينحني : ـ « أنا يا سيدي . إنني سعيد بخدمتك » .

ـ « إذن ، فأنت تسمع الحكايات وتقرأ الكتب بشوق كبير ؟ » .

احمر الشاب وأجاب : ـ « إنني يا سيدي لا أعرف تسلية أمتع وأمضى راضياً وقت الفراغ كله على هذا النحو. فهذا يغني الفكر ويقصّر الوقت . لكن لكل ذوقه وانا طبعاً لا أدين من ... » .

قاطعه الشيخ ضاحكاً : ـ « أعرف ، أعرف » .

ثم نادى الشاب التالي وسأله : ـ « ومن أنت ؟ » .

ـ « إنني أعمل يا سيدي مساعد صيدلاني ، وقد صرت الآن أعالج المرضى بنفسي » .

تمتم الشيخ : ـ « حسناً ، حسناً . إنه ذاك الذي يحب العيش الرغيد . أأنت من يحب المرح والاحتفال مع الأصدقاء ؟ لقد حزرت أليس كذلك ؟ » .

أحس الشاب بالخجل ، وشعر أن المسن على الأرجح قد كشف سره ، ونقل كلماته . لكنه تمالك نفسه وأجاب :

ــ « نعم يا سيدي ، فأنا أعتبر قضاء الوقت مع الأصدقاء الجيدين واحدة من متع الدنيا ، لكن ، يا للأسف ، فإن ما في كيسي لا يكفيني إلا لأن أقدم لهم الجَبَسَ وشيئاً آخر رخيصاً أيضاً . غير أن هذا لا يمنعنا من أن نمرح ، وفي مقدوري أن أتخيل كم كنا سنمتع أنفسنا لو كان لدي مال أكثر » .

أعجب الرد الجريء الشيخ ولم يستطع الامتناع عن الضحك . لكنه تابع أسئلته :

ــ « من منكم التاجر ؟ » .

رد التاجر الشاب قائلاً : ــ « أرى يا مولاي أن عمنا المسن قد نقل حماقاتنا كلها لك ليسليك ، وإذا كان قد نجح في الترويح عنك فيسرني أنني كنت الوسيلة الى ذلك . أما ما يخص الموسيقى والرقص فأنا أعترف بأن ليس سهلاً البحث عن تسلية أخرى تروق لنفسي أكثر . لكن لا تظن يا مولاي أنني أنتقدك لأنك ..... » .

تمتم الشيخ مبتسماً وهو يرفع يده : ــ « كفى ، لا تتابع . أنت تريد أن تقول إن لكل مزاجه ، لكنني أرى

شاباً آخر معكم . إنك ذلك الذي يحب الترحال على الأرجح؟ فمن تكون ؟ » .

أجاب الشاب : ـ « إنني رسام يا سيدي . أرسم المناظر الجميلة على جدران الغرف ، او اصورها على القماش . اما رؤية البلاد الغريبة فهي حلمي المنشود . في مقدوري هناك أن ارى البقاع الساحرة وأصورها بعد ذلك، وكما تعلمون فالخيال لا يغني عن الرؤية » .

نظر الشيخ الى الشبان ممشوقي القوام ، وكانت نظرته صارمة ومتجهمة ، ثم قال :

ـ « كان الي في وقت ما ابن أحبه أيضاً ، وهو الآن في مثل سنكم . ربما كنتم ستصيرون أصدقاء له ورفاق ، وكانت أحلامكم ستتحقق من تلقاء نفسها ، فكان سيقرأ مع أحدكم ويسمع الموسيقى مع الثاني ويحتفل مع الثالث ويمرح مع الأصدقاء . أما الرسام فكنت سأطلقه معه الى البلاد الرائعة وأنا مطمئن الى أنه سيعود الى المنزل . لكن الله لم يشأ ذلك ، وأنا أقبل حكمه ولا أتذمر . ومع ذلك فإن في مقدوري أن أحقق أمنياتكم كي تغادروا منزل علي بانو وقلوبكم سعيدة » . ثم تابع الشيخ حديثه موجهاً إياه الى الناسخ : ـ « ستعيش يا صديقي العالم من الآن فصاعداً

معي ، وستطلع على كتبي . في مقدورك إن شئت أن تحصل على كل ما تعتبره قيماً ، وواجبك الأوحد هو أن تقص عليّ كل ممتع تقرأه في تلك الكتب . أما أنت يا من تحب الحفلات المرحة مع الأصدقاء ، فستحضر جميع الحفلات التي ستقام في منزلي . صحيح أنني أعيش منعزلاً ومحروماً من السعادة لكن واجبي ومقامي يفرضان عليّ أن أدعو ضيوفاً كثيرين الى بيتي من وقت الى آخر ، وستكون أنت المتصرف في كل شيء عوضاً عني ، وستدعو إن شئت أصـدقاءك وستقدم لهـم بطبيعة الحال شيئاً أفضل من الجبس . فيما يخص التاجر الشاب فأنا لا أستطيع شغله عن عمله الذي يدر عليه المال والشرف ، لكن جميع الراقصين والمغنـين والموسيقيين في بيتي سيكونون رهـن إشارتك يا صديقي الفتـي ، فتمتع بالعزف والرقص كما يحلو لك . أما أنت ــ كان كلامه موجهاً الى الرسام ــ فيجب أن ترى البـلاد الغريبـة كي تجعـل التجربة نظرك ثاقباً . سيعطيك خازن اموالي ألف قطعـة ذهبية وحصانين وعبـداً من أجـل رحلتك الأولـى ، التي تستطيع الانطلاق فيها منذ الغد . سر الى حيث يشير عليك فؤادك ، وارسم لي كل رائع تقع عيناك عليه » .

لم يستطع الشبان أن يثوبوا الى رشدهم دهشة ، وانعقدت ألسنتهم فرحاً وعرفاناً بالجميـل . فأرادوا أن

يقبلوا الأرض عنـد قدمي الشيخ الشهم ، لكنه لم يتح لهم ذلك ، وقال :

ـ « لا تشكروني أنا ، بل هذا الرجل الحكيـم الذي عرفني بكم ، ومعرفة أربعة شبان مرحين أمثالكم هي أمـر أدخل السرور الى قلبي أيضاً » .

لكن الدرويش مصطفى رفض شكر الشبان أيضاً ، وقـال :

ـ « أترون ، لا ينبغي أبداً الحكم علـى الناس علـى عجل . هل بالغت حين تكلمت على نبل الشيخ ؟ » .

قاطعه علي بانو قائلا : ـ « لنسمع العبد الأخير ممن سأعتقهم اليوم » .

وذهب الشبان الى أماكنهم .

وقف العبد الشاب ، الذي لفت انتباه الجميع بطوله ووسامته ونظرته الرجولية ، وانحنى للشيخ، وشرع يتحدث بصوت جهوري :

* * *

قصة المنصور

لقد روى لك يا سيدي العبدان من قبلي حكايتين عجيبتين سمعاهما في بلاد غريبة . أما أنا ، ويا خجلتاه ، فعلي أن أعترف بأنني لا أستطيع رواية شيء جدير باهتمامك ، لكن إذا لم يكن ما سأرويه مملاً فإنني سأطلعك على المآل الغريب الذي آلت اليه حياة واحد من أصدقائي .

كان على سفينة القراصنة الجزائريين ، الذين انقذتني منهم بكرمك ، ثمة شاب في مثل سني وبدا لي أنه لم يولد ليرتدي ثوب العبودية الذي كان عليه . كان التعساء الآخرون على سفينتنا إما أناساً فظين لم أرغب في عشرتهم ، وإما غرباء لم أكن أفهم لغتهم ، لذلك رحت عن طيب خاطر أقضي دقائق الخلوة القليلة معه . كان يدعى منصور ، وكان احتكاما إلى لهجته مصري المولد . رحنا نمتع نفسينا بالأحاديث ، واتفقنا مرة على أن يطلع أحدنا الآخر على مصيره ، ويا للتعاسة ، فقد تبين أن قصته كانت أمتع كثيراً من قصتي .

كان والد المنصور قائداً مشهوراً ، وعاش في مصر في مدينة لم يسمها لي ، فأمضى طفولته في كفاية وسعادة ، محاطاً بالإهتمام ومباهج الحياة كلها ، لكنه لم يكن مدللا بل نما عقله باكراً ، ورباه أبوه ، الأنسان الحكيم ، على فعل الخير ، وكان معلمه عالماً مشهوراً لقنه كل ما يحتاج الى معرفته شاب في مثل مقامه . بلغ المنصور العاشرة من عمره حين قدم الفرنجة من وراء البحار وهجموا على شعبه .

لم يرضِ والد الصبي الفرنجة على الأرجح لأنهم أتوه مرة حين كان يهم بالذهاب ليصلي صلاة الفجر ، وطلبوا منه أول الأمر أن يعطيهم زوجه ضمانا لوفائه لشعب الفرنجة ، ولما لم يشأ ذلك قادوا ابنه الى معسكرهم عنوة .

غطى الشيخ وجهه حين كان العبد الشاب يروي قصته وسرت في القاعة همهمة استياء ؛ وهتف أصدقاء الشيخ : « ــ كيف يجرؤ هذا الشاب على قول هذا الكلام الأخرق ؟ إنه بقصته هذه لا يدمل جرح علي بانو بل ينكأه . كيف يجرؤ على أن يزيد مصابه عوضا عن أن يخفف منه » .

غضب أيضاً ملاحظ الرقيق من الشاب الوقح ، وأمره بالصمت . لكن العبد الشاب سأل الشيخ دهشاً ان كان قد أزعجه بحكايته ، فاستقام الشيخ وتمتم قائلا :

« ـ إهدأوا يا أصدقائي . كيف لهذا الشاب أن يعرف مصابي وهو لم يمض تحت هذا السقف سوى ثلاثة أيام . أليس ممكناً أن يكون قد حل بغيري ما حل بي مع الأهوال كلها التي ألحقها الفرنجة بنا ؟ أليس ممكنا أن يكون المنصور هو نفسه ... لكن أكمل يا عزيزي الشاب أكمل » .

انحنى العبد الشاب وتابع قائلا :

« ـ وهكذا ساقوا المنصور الى معسكرهم . لقد عاش عموما على نحو غير سيء ، إذ دعاه واحد من قادة الفرنجة الى خيمته ، وراح يتسلى بإجاباته التي كان الترجمان ينقلها له ، وسعى الى أن لا ينقص المنصور شيء من كساء أو طعام لكن الحنين الى أبيه وأمه كان يضنيه ، فبكى أياماً عدة ، وأهرق دموعاً كثيرة من غير أن يتأثر الفرنجة بها . بعد ذلك رحل هؤلاء عن معسكرهم فظن المنصور أنهم سيسمحون له الآن بالعودة الى منزله ، لكن ذلك لم يحدث بل زحفت جيوشهم لمحاربة المماليك ، وحملوا الصبي معهم الى كل مكان ساروا إليه ، وحين رجى قادتهم ورؤساءهم أن يتركوه في حال سبيله رفضوا ، وقالوا له إنه رهينة يضمنون بها وفاء أبيه لهم . وهكذا قضى معهم في حملتهم أياماً كثيرة .

سرى بين الجنود فجاءة اضطراب لم يخف على الصبي وأخذ الجميع يتحدثون في كل مكان على النكوص والعودة الى

الوطن وعلى اعتلاء السفينة . ففرح المنصور فرحاً عارماً ظناً منه أن الفرنجة سيطلقونه حين يعودون الى موطنهم . تحركت قوافل الجيش نحو شاطىء البحر ، وبدت أخيراً السفن الراسية في الميناء . راح الجنود يصعدون الى السفن لكن الظلام حل ولم يصعد سوى قسم غير كبير منهم . حاول المنصور جاهداً التغلب على النعاس ، لأنه كان ينتظر أن يعيدوه الى منزاله كل دقيقة ، غير أنه فشل وغط في نوم عميق ، وهو يظن أن الفرنجة قد مزجوا له شرابا منوماً في الماء ، ولما استيقظ كانت الشمس تنير الغرفة ، التي لم يكن فيها حين غفا . قفز عن سريره ، لكنه لم يكد يطأ الأرض حتى مادت تحت قدميه وسقط ، وراح كل شيء يدور من حوله ويهتز اهتزازاً شديداً ، فنهض متكئا على الجدار وخرج من الغرفة .

علا من حوله عويل وصفير غريبين ، ولم يعلم إن كان في حلم أم يقظة، لأنه لم ير ولم يسمع بشيء يشبه هذا في حياته. وصل أخيراً الى سلم ضيق ، فصعد عليه بصعوبة ، ويا لهول ما رأى . لقد أحاط البحر والسماء به من الجهات كلها . أنه على متن سفينة . أخذ يبكي على نحو يثير الشفقة ، وأراد أن يعود الى المنزل ، فهم برمي نفسه في البحر ليصل الى موطنه سباحة ، لكن الفرنجة أمسكوا به ودعاه أحد قادتهم إليه ووعده بأن يعيده الى منزله سريعاً إذا ظل مطيعاً ،

وشرح له أن ارساله الى المنزل كان مستحيلاً ، ولو تركوه وحيداً على الشاطىء لمات جوعاً .

لكن الفرنجة لم يفوا بوعدهم ، وأبحرت سفينتهم أياماً كثيرة لترسو في النهاية على شاطىء لم يكن شاطىء مصر ، بل شاطىء بلادهم . صار المنصور في أثناء اقامته مع الفرنجة في معسكرهم ، وفي أثناء إبحاره الطويل معهم ، يفهم لغتهم ويتكلم بها قليلا ، وقد أفاده ذلك فائدة كبيرة في بلاد لم يكن فيها من يعرف لغته . ساروا به أياماً عديدة في عمق البلاد ، وكان الناس يهرعون في كل مكان كي يلقوا نظرة عليه ، لأن مرافقيه أشاعوا أنه ابن حاكم مصر الذي ارسله الى بلاد الفرنجة ليكمل تعليمه .

لكن الجنود قالوا ذلك كي يوهموا شعبهم بأنهم انتصروا على مصر ، وعقدوا مع هذا البلد صلحاً راسخاً . وصل المنصور بعد مسير ايام كثيرة في بلاد الفرنجة الى مدينة كبيرة ، بدا انها كانت هدف الرحلة ، فسلمه مرافقوه هناك الى طبيب اخذه الى منزله وراح يعلمه اخلاق تلك البلاد وعاداتها .

بداية ، وقبل كل شيء ، ألبسوا المنصور ثياباً افرنجية ضيقة وبعيدة كل البعد عن جمال الثياب المصرية ، ثم حرموا عليه الانحناء ومصالبة اليدين على الصدر ، وصار عليه الآن

إذا ما أراد أن يظهر الاحترام لأحدهم أن ينزع عن رأسه باحدى يديه قبعة اللباد السوداء الكبيرة ، التي يرتديها الرجال هناك كلهم ، وأن يبعد اليد الأخرى جانباً ويخفق بقدمه اليمنى . كذلك حرموا عليه الجلوس وضم القدمين كما يفعل الناس في بلاد المشرق ، وصار الآن مضطراً الى الجلوس على كراس عالية ، مدلياً قدميه على الأرض . لم يشذ الطعام أيضاً عن هذه القاعدة ، وقد حمل للمنصور الكثير من الازعاج ، فصار عليه أن يغرز فيه شوكة معدنية قبل أن يضعه في فمه .

كان الطبيب انساناً صارماً وشريراً ، وراح يعذب الصبي ، فاذا حدث أن قال هذا الأخير لضيف ما : « السلام عليكم » سهواً ، فانه كان يضربه بالعصا ويجبره على أن يقول : Votre serviteur (١) . لقد حرم عليه أن يفكر بلغته الأصلية، وأن يتكلم ويكتب بها ، ولم يبق له سوى أن يحلم بها . وربما كان سينساها نهائيا لو لم يقطن تلك المدينة رجل قدم له مساعدة كبيرة .

كان هذا الرجل مسناً واسع العلم ، وعارفاً بالقليل من لغات شرقية كثيرة كالعربية والفارسية والقبطية ، وحتى الصينية ، وقد أجله الناس في تلك البلاد لعلمه هذا ،

---

(١) خادمكم المخلص (باللغة الفرنسية) .

وكانوا يدفعون له نقوداً طائلة لتدريسه إياهم هذه اللغات .
راح هذا الانسان يدعو المنصور إليه بضع مرات في الأسبوع، ويقدم له الأطباق النادرة وغيرها من الأطعمة ، وبدا للشاب أنه في منزله . كان المسن غريب الأطوار جداً ، إذ خصص للمنصور ثياباً شبيهة بتلك التي يرتديها القادة المشهورون في مصر ، وكان يحفظها له في غرفة خاصة، وحين كان الصبي يأتي لزيارته كان يرسله مع واحد من خدمه الى تلك الغرفة، فيرتديها وفاقاً للعادة المتبعة في موطنه . بعد ذلك كانا يتجهان الى « بلاد العرب الصغرى » ، وهي غرفة في منزل العالم سماها هذا الاسم .

كانت الغرفة مزينة على نحو ماهر بأشجار النخيل والخيزران والأرز الفتي ، وبالزهور التي لا يمكن للمرء أن يراها إلا في بلدان الشرق ، وغطيت أرضها بالسجاد الفارسي، وكان ثمة وسائد قرب الجدران . أما الكراسي والمناضد الافرنجية فلم يكن لها أثر هناك . كان المسن العالم يجلس على إحدى الوسائد ، وكانت هيئته ليست عادية ، إذ كان رأسه ملفوفا مع العمامة بشال تركي رقيق، ولحيته الشيباء المستعارة متدلية حتى حزامه ، ولا تختلف عن أية لحية جليلة حقيقية لأي رجل موقر . كان ملتفاً بمعطف حيك من نوب صباحي من الخيش ، وكان مرتدياً سروالا واسعا ومنتعلا خفين أصفرين ، وعلى الرغم من أنه كان يمتاز

هموما بخلق مسالم الا أنه كان يعلق على خصره في مثل تلك الأيام سيفاً تركياً ، ويدس خلف زناره يطقاناً مرصعاً بأحجار كريمة حقيقية . كان يدخن غليونا يزيد طوله على الذراعين ، وكان يقوم على خدمته خدم يرتدون أيضاً ثيابا فارسية ، وقد طليت وجوه الكثيرين منهم وأياديهم بطلاء أسود .

بدا للمنصور الفتي أول الأمر كل شيء هناك غريبا جدا ، لكنه فهم بعد ذلك أن تلك الساعات التي يقضيها عند هذا المسن كانت مواتية لرغباته ، وأتت لفائدته . فاذا كان لا يجرؤ على قول كلمة واحدة بالمصرية عند الطبيب فلن الحديث بالفرنسية هنا كان ممنوعا . كان المنصور حين يدخل يلقي التحية ، فيردها المسن الفارسي على نحو احتفالي ، ثم يشير للفتى كي يجلس قربه ويبدأ يثرثر معه بالفارسية والعربية والقبطية وبلغات أخرى مختلطة فيما بينها ، وكان يسمي هذا الحديث حديثاً شرقياً علمياً ، في حين كان يقف في جوارهما خادم ، أو عبد إن شئتم كما كان يسمى تلك الأيام ، يحمل كتاباً كبيراً ، وكان هذا الكتاب قاموساً ، وحين تخون الكلمات المسن كان يشير الى العبد فيقلب الصفحات ، وسرعان ما يجد الكلمة المطلوبة ويتابع حديثه .

كان العبيد يأتون بالشراب والأطعمة الأخرى في أوان تركية ، وكان يكفي المنصور ليرضي المسن أن يقول إن كل شيء لديه مرتب على الطريقة الشرقية . كان المنصور يقرأ بالفارسية على نحو رائع ، وكان هذا في نظر الشيخ ميزة عظيمة ، لذلك أمر الفتى بأن يقرأ له بصوت عال مجموعة كبيرة من المخطوطات الفارسية ، التي كان يقتنيها ، ليردد خلفه كل كلمة يقولها كي يلحظ على هذا النحو اللفظ الصحيح .

بدت هذه الأيام للمنصور المسكين أعياداً ، ولم يكن العالم المسن يطلقه بغير هدية ، وغالبا ما تكون ثمينة . فأهداه نقوداً وقماشاً كتانياً وغير ذلك من الأشياء النافعة ، التي كان الطبيب يضن عليه بها . عاش المنصور على هذه الحال بضع سنوات في عاصمة بلاد الفرنجة ، لكن حنينه الى الوطن لم يخف ، وحين بلغ الخامسة عشرة من عمره حدث له حادث أثر تأثيراً كبيراً على مصيره اللاحق .

تلخص الأمر في أن الفرنجة اختاروا قائدهم الرئيسي ، الذي غالبا ما كان يجالس المنصور في مصر ، ملكاً عليهم وحاكماً لهم . صحيح أن المنصور قد فهم من الاحتفالات والأعياد التي أقيمت في العاصمة أن شيئا من هذا القبيل يحدث ، لكنه لم يكن ليظن أبداً أن الملك هو ذاك الرجل ،

الذي رآه في مصر ، فذاك القائد كان لا يزال حينئذ فتياً جداً . سار المنصور مرة على جسر فوق نهر عريض كان يسيل في تلك المدينة نفسها ، فرأى إنساناً في زي جندي عادي ، مسنداً مرفقه على حاجز الجسر وهو ينظر الى الماء . بدت ملامح وجه الرجل معروفة له ، وتذكر أنه قد رآه من قبل ، فراح يبحث على عجل في خبايا ذاكرته ، وحين قرع الباب المؤدي الى ما حفظه فيها في مصر أنير عقله فجأة وتذكر أن هذا الرجل هو ذلك القائد الإفرنجي الذي جالسه كثيراً في المعسكر ، والذي رعاه باهتمامه ، لكنه لم يكن قد عرف حتى الآن اسمه الحقيقي ، جمع قواه واقترب منه وناداه ، كما كان الجنود يسمونه ، مصالباً يديه على صدره كما جرت عليه العادة في موطنه الأصلي ، فقال :

ـ « السلام عليكم يا Petit Caporal »(١) .

التفت الرجل دهشاً ، ورمى الفتى بنظرة فاحصة ، ثم فكر دقيقة وقال :

ـ « يا إلهي ، أيعقل هذا ؟ أانت هنا أيها المنصور ؟ كيف يعيش والدك ؟ ماذا يجري الآن في مصر ؟ ما الذي أتى بك إلينا ؟ » .

---

(١) الأمباشي الصغير (باللغة الفرنسية) .

لم يتمالك المنصور نفسه واجهش يبكي بمرارة ، وقال:

ـ « إذن ، فانت لا تعرف ايها الامباشي الصغير ما الحقه بي مواطنوك الكلاب ؟ الا تعلم انني لم ار منذ سنوات عديدة ارض آبائي واجدادي ؟ » .

قال الرجل مقطباً جبينه : ـ « لا أستطيع تصديق ذلك . لا استطيع ان اصدق انهم جروك وراءهم » .

اجاب المنصور : ـ « هذا ما حدث ، ففي ذلك اليوم حين صعد جنودكم الى متن السفينة كانت آخر مرة رأيت فيها وطني . لقد اخذوني معهم ، وصار قائد من قادتكم ، اشفق لحالي ، ينفق عليّ لدى طبيب ملعون يضربني ويضنيني جوعاً ـ ثم تابع المنصور بروح بريئة ـ اسمع أيها الامباشي الصغير . كم انا محظوظ لانني التقيت بك ، فأنت ستساعدني » .

ابتسم ذلك الرجل الذي وجه إليه هذه الكلمات، وسأله كيف يستطيع مساعدته ، فقال المنصور : ـ « إنني أشعر بالخجل من طلب شيء ما منك . صحيح انك كنت طيباً معي دائماً ، لكني اعلم انك انت أيضا إنسان فقير ، وحين كنت قائداً كنت ترتدي دائماً على نحو أسوأ من الآخرين ، واحتكاما الى سترتك وقبعتك فلن امورك الآن أيضا ليست

على ما يرام . غير أن الفرنجة انتخبوا منذ فترة سلطاناً عليهم ، وأنت تعرف طبعا أحد المقربين منه . ربما كان آغا إنكشاريه أو ريس أفندي أو قابودان باشا،اليس كذلك؟» .

وافقه الرجل : ــ « نعم ، وماذا بعد ؟ » .

ــ « الا تستطيع ايها الأمباشي أن تذكرني لواحد منهم بكلمة ليطلب من سلطان الفرنجة أن يعتقني ؟ حينئذ لا يبقى سوى أن احصل على قليل من النقود يكفيني لطريق العودة. لكن الأهم هو أن تعدني بأن لا تقول شيئا الطبيب أو العالم العربي » .

سأله الرجل : ــ « ومن هذا العالم العربي ؟ » .

ــ « آه ، إنه انسان غريب ، لكنني سأحدثك حديثه مرة أخرى . إذا علما بما قلته لك فلن أستطيع الخروج من بلاد الفرنجة . هل أنت موافق على أن تذكرني بكلمة أمام الآغا ؟ قل بصراحة » .

قال الرجل : ــ « تعال معي . ربما أكون مفيداً لك الآن حالاً » .

هتف الفتى مرعوبا : ــ « الآن ؟ لا أستطيع الآن وإلا ضربني الطبيب . أنا مسرع الى المنزل » .

سأله الآخر من غير أن يدعه يذهب : — « ما الذي تحمله في السلة ؟ » .

احمـر المنصور خجلاً ولم يشـأ أول الأمر أن يريه ما يحمله فيها ، لكنه قال أخيراً :

— « أترى أيها الأمباشي الصغير كيف أضطر الى القيام بالأعمال نفسها التي يقوم بها أسوأ عبد عند أبي ؟ إن الطبيب بخيل ، ويرسلني كل يوم الى سوق الخضار والسمك ، الذي يبعد عن منزلنا ساعة سير كاملة ، وكي يوفر بضع نحاسات يجبرني على أن أشتري كل شيء من الباعة القذرين، فأسعارهم أقل قليلاً من الأسعار في حينا . أنظر ، إنني أضطر من أجل رنجة جرباء وحزمة خس وقطعة زبدة الى أن أسير كل يوم ساعتين . آه ، لو يعلم أبي بهذا » .

كان الرجل ، الذي تحدث المنصور إليه ، متأثراً جداً بعيشته المريرة ، وقال :

— « تعال معي ، ولا تخف ، فلن يجرؤ الطبيب على الإساءة إليك حتى لو بقي اليوم بغير رنجة أو خس . لا تقلق، والنذهب » .

قال هذه الكلمات وأمسك يد المنصور وقاده خلفه . كان في كلماته وحركاته مقدار كبير من الثقة ، جعل الفتى

يذهب معه على الرغم من أن قلبه كان منقبضا من فكرة عقاب الطبيب له . وهكذا سار ، والسلة في يده ، جنبا الى جنب مع الجندي في طرقات مختلفة ، وبدا غريباً له كيف راح الناس الذين صادفوهما ينزعون قبعاتهم ويقفون لينظروا في إثرهما ، فأخبر رفيقه بأن هذا يدهشه ، لكن الآخر ضحك ولم يجبه .

اقتربا اخيراً من قلعة رائعة ، اتجه الرجل نحوها مباشرة ، فسأله المنصور :

« ــ هل تعيش هنا أيها الأمباشي الصغير ؟ » .

اجابه الآخر : « ــ هنا شقتي ، وسأقودك الى زوجي » .

تابع المنصور قائلاً : « ــ يبدو أنك تعيش في غنى . هل اعطاك السلطان إياها مجانا ؟ » .

رد رفيقه وهو يدخله الى القلعة : « ــ أنت محق . لقد حصلت على هذه الشقة من الامبراطور » .

صعدا هناك على سلم عريض ، ثم أمر الرجل المنصور بأن يدع السلة في قاعة انيقة ، ودخلا معاً الى غرفة جميلة جداً ، كانت تجلس امرأة فيها على أريكة . راح الرجل

يحدثها بلغة غير مفهومة ، وضحكا معاً من قلبيهما ، ثم راحت المرأة تسأل المنصور بلغة الفرنجة عن مصر ؛ لكن الأمباشي الصغير قال له أخيراً :

« ــ أتعلم ، إن أفضل شيء افعله هو أن آخذك الى الامبراطور حالاً ، وأذكرك أمامه بكلمة » .

خاف المنصور خوفا شديدا ، لكنه تذكر مصيره المر والوطن فقال للاثنين معاً :

« ــ إن الله يهب التعس الشجاعة لحظة الحاجة الماسة إليها . إنه لن يدعني وإن كنت مسكينا . نعم ، سأفعل ما نصحتني به وسأذهب إليه . لكن قل لي أيها الأمباشي : ماذا عليّ أن أفعل ؟ هل أخر ساجدا وألمس الأرض بجبيني ؟ » .

قهقها معاً مرة أخرى ، وراحا يؤكدان له أن لا حاجة الى ذلك ، فسألهما :

« ــ هل هيئته مخيفة وعظيمة ؟ هل لحيته طويلة ، هل تبرق عيناه ؟ قل لي ما أوصافه ؟ » .

قهقه رفيقه مجدداً وقال . « ــ الأفضل أن لا أصفه لك أيها المنصور . ستحزر بنفسك من هو . سأذكر لك

علامة واحدة فقط : حين يكون الامبراطور في القاعة ينزع الجميع قبعاتهم احتراماً له ، ويكون الامبراطور هو ذاك الذي لا يخلع قبعته » .

قال هذه الكلمات وأمسكه من يده وقاده الى قاعة الامبراطور. كان قلب المنصور يزداد خفقاناً كلما اقتربا منها، وحين وصلا الى الباب المؤدي اليها ارتجفت ركبتاه . فتح الخادم الباب ، ورأى الفتى كيف وقف ثلاثون رجلاً هناك على هيئة نصف دائرة . كانوا يحملون جميعاً النجوم ، ويرتدون بزات رائعة موشاة بالذهب كما كان يرتدي آغوات البلاط وباشاواته في بلاد الفرنجة عادة ، وفكر المنصور أن رفيقه يرتدي ثيابا متواضعة لأنه الأقل قيمة بينهم على الأرجح . أنزل الجميع القبعات عن رؤوسهم ، وأجال المنصور النظر بينهم ، فمن ظلت القبعة على راسه سيكون هو الامبراطور . لكن بحثه ذهب سدى ، لأنهم امسكوا جميعا قبعاتهم بأيديهم . هذا معناه أن الامبراطور ليس موجودا بينهم . وهنا وقع نظره فجأة على رفيقه ، فماذا تظنون ؟ لقد كانت القبعة على راسه .

ذهل الفتى ، وراح ينظر إليه طويلاً ، ثم قال وهو ينزل قبعته أيضا :

« ـ السلام عليكم أيها الأمباشي الصغير . على ما أعلم فإن امبراطور الفرنجة هو ليس أنا ، وهذا معناه أن من غير اللائق أن أبقي القبعة على رأسي . أما أنت فما زالت قبعتك على رأسك . ألا تكون الامبراطور ؟ » .

أجابه الأمباشي : ـ « حزرت ، لكنني صديقك أيضا . لا تلمني على مصائبك بل عليك أن تلوم سير الأحداث غير السعيد ، وكن واثقا من أنك ستعود إلى موطنك على أول سفينة ستبحر إليه . اذهب الآن إلى زوجي ، وحدثها حديث العالم العربي وكل ماتعرفه . أما الخس والرنجة فسأرسلها إلى الطبيب . ستبقى في قصري الى أن يحين موعد سفرك» .

وعاش المنصور منذ ذلك اليوم في سعادة وكفاية ، وقد زار العالم العربي ، الذي حدث الامبراطور حديثه ، بضع مرات. أما الطبيب فلم يره بعد ذلك. دعاه الإمبراطور بعد مضي بضعة أسابيع ، وأعلن له أن السفينة التي يريد إرساله على متنها إلى مصر تستعد للإبحار ، فطاش صواب المنصور فرحاً واستعد خلال عدة أيام للسفر ، ليرحل بعد ذلك إلى البحر محملاً بالهدايا من الامبراطور، وقلبه مفعم بالشكر لهذا الرجل الذي منحه الحرية ، ثم أبحر من هناك إلى موطنه .

لكن الله شاء أن يطيل من تجربته ، وأن يصقل رجولته بالمحن ، فلم يقر ناظريه برؤية شاطىء وطنه . خاض الإنكليز ، وهم شعب افرنجي آخر ، حرباً بحرية مع الامبراطور

وانتزعوا منه السفن التي كسبها منهم كلها ، فحدث في اليوم السادس على رحلة السفينة التي اقلت المنصور أن أطلقت المراكب الإنكليزية ، التي احاطت بها ، النار عليها ، واضطر طاقمها إلى الاستسلام ، ونقلوا إلى مركب صغير أبحر خلف السفن الأخرى . غير أن البحر أيضا غير آمن كما الصحراء التي يعترض قطاع الطرق فيها فجاءة سير القوافل ويعملون فيها القتل والنهب ، فهجم قراصنة تونسيون على مركبهم ، الذي تخلف في أثناء العاصفة عن السفن الكبيرة ، واحتلوه ونقلوا افراد طاقمه جميعهم إلى الجزائر وباعوهم هناك عبيداً .

صحيح ان المنصور ، وهو مسلم مؤمن ، قد وقع في عبودية غير ثقيلة كما كان لدى المسيحيين ، لكنه ، وعلى الرغم من ذلك ، فقد آخر امل له في أن يرى وطنه واباه . عاش على هذه الحال خمس اعوام لدى رجل غني ، فكان يسقي له الورود في بستانه . لكن هذا الرجل الغني مات ، ولم يكن له من يرثه فسلب خيره واقتسم عبيده ، ووقع المنصور بين يدي نخاس . كان هذا الاخير يجهز سفينة كي يبيع عبيده بسعر اعلى في بلدان اخرى ، وقد شاء القدر أن اكون واحداً من عبيد هذا النخاس ، فوجدت نفسي على تلك السفينة مع المنصور، وعرف أحدنا الآخر هناك، وهناك أيضاً اطلعني على قصته غير العادية هذه . لكن حين رسونا على البر تأكد صديقي مرة اخرى أن دروب الله لا يعرفها أحد .

لقد نزلنا على شاطىء موطننا ، وعرضنا للبيع في سوق النخاسة في مدينتنا ، و - ياإلهي - سأقول لك كل شيء باختصار : لقد اشتراه والده الحبيب .

غرق علي بانو في تفكير عميق بهذه الرواية . لقد جذبته على الرغم منه ، وراح صدره يعلو ويهبط وعيناه تبرقان ، وكان على استعداد مرات كثيرة لأن يقطع حديث العبد الشاب ، لكن بدا أن نهاية القصة لم ترق له ، فبدأ يسأل على النحو التالي :

- « هل قلت إنه بلغ الآن قرابة الحادية والعشرين من عمره ؟ » .

- « نحن تقريباً في سن واحدة ياسيدي . واحد وعشرون أو اثنان وعشرون » .

- « وأي مدينة سماها لك موطنه . ألم يقل لك شيئا عن هذا ؟ » .

اجابه العبد :- «إن لم أكن مخطئاً فإنها الاسكندرية» .

هتف الشيخ : - « الاسكندرية . إنه ابني . أين هو؟ ألم تقل إن اسمه كان حيرام ؟ ما لون عينيه ؟ أغامقتان ؟ وشعره ؟ إهو أسود ؟ » .

ـ « نعم ، إنها كذلك ، وقد سمى نفسه في أوقات الصفاء حيرام وليس المنصور » .

ـ « لكن أستحلفك بالله أن تقول لي هل اشتراه أبوه على مرأى منك ؟ هل قلت إنه قد ذكر لك أن الذي اشتراه هو والده ؟ هذا معناه أنه ليس ولدي » .

أجاب العبد : ـ « لقد قال لي : « الحمد لله ، فبعد هذا القدر من المحن ها هي ساحة سوق مدينتي » . وبعد قليل أطل من خلف المنعطف قائد ، فهتف حين رآه قائلاً : « حقاً ان العينين هبة ثمينة من السماء . لقد كتب لي أن ارى ابي الموقر مرة أخرى » . ثم اقترب الرجل الذي رآه منا ، وراح يفحص الجميع واشتراه في النهاية ، حينئذ شكر الله وهمس لي قائلاً : « ها انا اعود الى بيت السعادة . لقد اشتراني والدي » » .

تمتم الشيخ وهو ممتلىء بالاحزان : ـ « هذا معناه انه ليس ابني . إنه ليس حيرام » .

حينذاك لم يعد الشاب قادراً على كبح اضطرابه أكثر من ذلك ، وانفجرت دموع الفرح من عينيه وخر ساجداً أمام الشيخ وقال :

ـ « وعلى الرغم من ذلك فهو ابنك حيرام المنصور .
لقد اشتريته بنفسك » .

هتف جميع من في القاعة : ـ « يا الله ، يا اللـه .
ما هذه المعجزة الخارقة ؟ » .

وراحوا يتدافعون ساعين الى الاقتراب . أما الشيخ
فانعقد لسانه ، وراح ينظر الى الشاب الذي رفع وجهه
الوسيم نحوه ، ثم قال أخيراً موجهاً الحديث للدرويش
المسن :

ـ « لقد غطت الدموع عيني بالغشاوة يا صديقي
مصطفى ، ولا استطيع رؤية إن كانت ملامح وجه أم حيرام
التي يحملها منذ ولادته هي ملامح وجه هذا الشاب. اقترب
وانظر إليه » .

اقترب المسن وأمعن النظر الى الشاب طويلاً ، ثم وضع
يده على جبينه وقال :

ـ « قل يا حيرام ماذا جاء في تلك العبارة التي حملتها
إياك الى معسكر الفرنجة ذلك اليوم المنكوب » .

أجاب الشاب وهو يمس يد المسن بشفتيه : ـ
« جاء فيها يا معلمي العزيز أن من يحب الله بروح صادقة

لن يكون وحيداً في صحراء النوائب ، بل سيرافقه ملاكان يؤازرانه ويخففان عنه » .

حينئذ رفع المسن عينيه الى السماء حمداً لله ، وانهض الشاب وضمه الى صدره ، ثم قربه من الشيخ وهو يقول : ــ « خذه ، فكما أن انتظارك له عشر سنوات كان حقيقة ، كذلك فالحقيقة هو أنه ابنك حيرام » .

لم يعد الشيخ يعي نفسه فرحاً وسعادة ، ولم يقدر على إشباع ناظريه من ابنه العائد اليه من جديد ، والذي برزت فيه بوضوح ملامح حيرام القديم . فرح جميع الحاضرين معه لأنهم كانوا يحبونه ، وبدا الكل فرد أن الحظ السعيد قد أهداه هو نفسه ابناً ذاك اليوم .

صدحت الأغاني وصيحات الفرح من جديد كما في القاعة في أيام السرور والمرح ، واضطر الشاب الى أن يروي ما جرى معه مرة أخرى لكن بتفصيل أكبر ، وامتدح الجميع العالم العربي والامبراطور وكل من تعاطف مع حيرام . تفرق حشد الضيوف في وقت متأخر ليلا ، وقد قدم الشيخ لأصدقائه هدايا سخية كي يحفظوا في ذاكراتهم الى الأبد هذا اليوم السعيد .

أما الشبان الأربعة فقدمهم لابنه ودعاهم لزيارته دائماً ، واتفق الجميع على أن يقرأ حيرام الكتب مع الناسخ ، وينطلق في الرحلات البعيدة مع الرسام ، ويتسلى بالرقص والغناء مع التاجر وأصدقائه ، في حين سيحضر الشاب الرابع جميع الحفلات التي ستقام في قصر الشيخ ، ثم قدم لهم الهدايا وغادروا منزله فرحين .

في الطريق راحوا يتحدثون :

« ــ من علينا أن نشكر غير ذلك الرجل المسن ؟ من كان يظن أن ذلك سيحدث لنا حين كنا واقفين قرب منزل الشيخ ونطلق أحكامنا عليه ؟ » .

تمتم شاب آخر : « ــ كان في مقدورنا أن نعرض بآذاننا بسهولة عن حديث المسن ، أو أن ننفجر ضاحكين هزءاً منه لقد كان يرتدي أسمالا بالية ، ولم يكن أحد ليفكر بأنه هو الحكيم مصطفى عينه » .

قال الناسخ : « ــ يا للغرابة ، لقد رحنا في هذا المكان تحديداً نعبر عن رغباتنا بصوت عال ، فحلم أحدنا بالترحال والثاني بالغناء والرقص ، والثالث بالمآدب المرحة مع الأصدقاء أما أنا فبقراءة الكتب وسماع الحكايات ، وها هي أحلامنا تتحقق كلها ، ففي مقدوري الآن أن أقرأ كتب الشيخ كلها ، وأن امتلك أي واحد أريد منها » .

تمتم الآخر : « ــ أما أنا ففي مقدوري الآن أن أزين مائدته وأتصرف بجميع حفلاته وأشارك فيها بنفسي » .

« ــ وأنا ؟ ما أن ترغب نفسي في سماع الغناء والعزف على القيثارة أو مشاهدة الرقص حتى أذهب إليه واطلب منه أن يعطيني عبيده كلهم » .

هتف الرسام : « أما أنا فكنت فقيراً حتى هذا اليوم ، ولم يكن في مقدوري أن أخطو خطوة واحدة خارج المدينة ، لكنني الآن أستطيع السفر الى بلاد بعيدة » .

هتف الجميع معاً : « نعم ، حسن جدا أننا تبعنا المسن فمن يعرف ما كان سيحدث لو لم نفعل ذلك ؟ » .

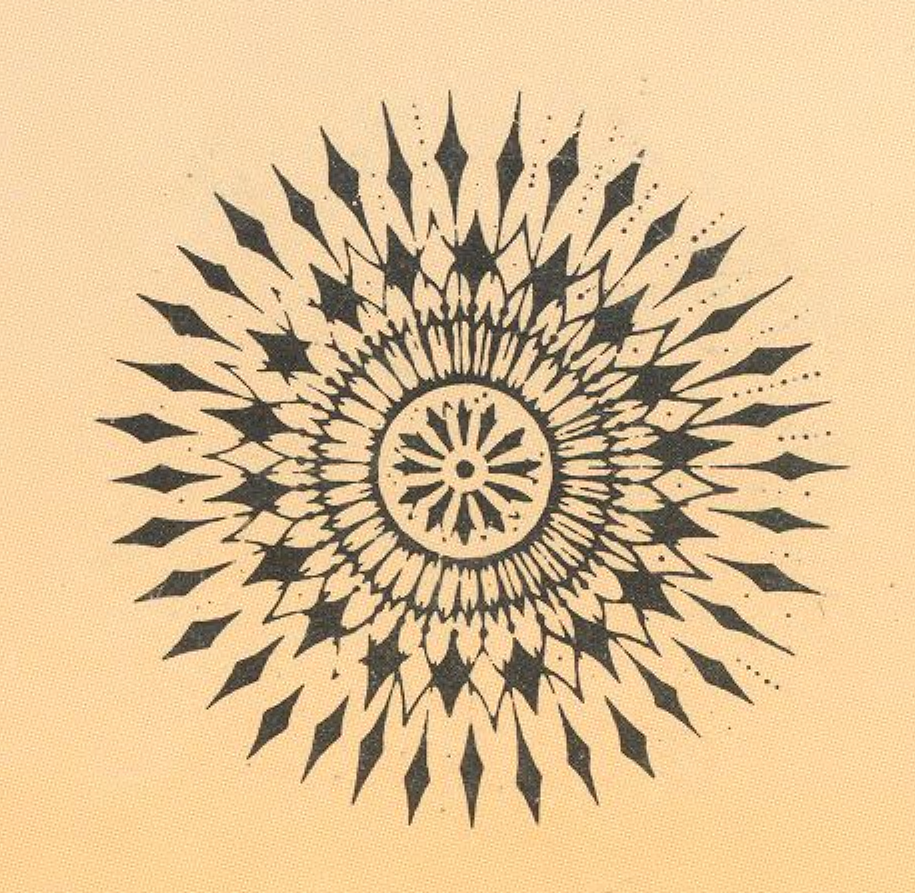
هكذا راحوا يتحدثون . ثم افترقوا فرحين كل الى منزله .

* * *

الفهرس

الحكايـة في زي المنـاخ	٣
شيخ الاسكندرية وعبيـده	١٢
القـزم أنف	٢٦
الانكليزي الشـاب	٨٦
قصـة المنصـور	١٢٨

٢٥٠٠ ط١ ١٩٩٧/١٢/١





طبع في مطابع وزارة الثقافة

دمشق ١٩٩٧

سعر النسخة داخل القطر

١٠٠ ل.س

في الأقطار العربية ما يعادل

٢٠٠ ل.س